قصص من العالم الآخر 2

الذي يمشي خلف الصفوف

تأليف: ستيفن كنج

ترجمة و إعداد : عمرو خيري

الناشران: دار ليلى – دايموند بوك

هذه السلسلة، تنقلك بين آفاق الأدب العالمي، إلى حيث عوالم أخرى لا نحياها، وحيث تلتقي بنوع متميز من الأدب..

لكنه نوع خاص جداً..

أدب الرعب ..

حيث ترتحل بين مصاصي الدماء، والمذؤبين، وسارقوا الأزمان، وصانعوا الوحوش، والأساطير، و السحر الأسود.. و كل ما يمكن أن يثير خوفك، و لم تتوقعه في أشر أحلامك طراً..

كل هذا - و أكثر- نقدمه لك في إطار متميز من الترجمة الأمينة، والدقيقة، حيث ننقل لك عالماً بعيداً ، بين يديك ..

عزيزي القارئ ..

إنها ليست أي قصص ..

بل هي قصص من العالم الآخر.

* * *

محمد سامي

قصص من العالم الآخر

٢

الذي يمشي خلف الصفوف

قصص من العالم الآخر

•

أروع قصص الرعب العالمي
بين يديك
في ترجمة متميزة.

•

التصحيح:

محمد عيد

•

الإشراف العام:

أ. محمد سامي – م. سند راشد دخيل

•

جمهورية مصر العربية :
دار ليلى للنشر و التوزيع و الإعلان- ٣٢ شارع السودان – الدقي
هاتف : ٠١٢٢٣٨٨٥٢٩٥- ٣٣٧٠٠٤٢ (٠٠٢) - الموقع : www.darlila.com
الكويت:
دايموند بوك - هاتف: ٠٠٩٦٥٧٥٥٥٤٢٩ - الموقع: www.diamond-book.com

كلمة المترجم

عزيزي القارئ..

ستتعرف اليوم على (ستيفن كينج) الذي لا يعرفه أحد، ستتعرف على (كينج) البلدات الصغيرة والحقول والطبيعة والشمس الغاربة، والريفيين السذج الذين يحملون في قلوبهم الكثير.. حقول الذرة والأنهار الصغيرة في أقاصي المناطق الريفية، والغابات البكر الممتدة امتداد الأفق.

لا تقلق، فلن تقرأ اليوم لـ"ستيفن كينج" قصصًا رومانسية مجهولة اكتشفها العبد لله، فهو – لا سمح الله – لم يقدم أدبًا من هذا النوع ولم يطمح فيه يومًا – بخلاف ما يرتبط من الرومانسية بأشكال أدب الرعب، في روايات له مثل "حقيبة من العظام".

اليوم سنتعرف على "ستيفن كينج" السهل الممتنع.. سندرك لماذا يعتبره الجميع أفضل وأمهر أدباء الرعب في العصر الحديث. معنا له قصتين طويلتين هما "هو الذي يمشي خلف الصفوف" و"الرجل ذو السترة السوداء".. مثال حي على عبقرية إثارة المخاوف من لا شيء.

عزيزي القارئ.. ستتعرف على "ستيفن كينج" القادر على إثارة الرعب في وضح النهار. ستلاحظ بعد قراءة ما أنت مقدم عليه أن كاتبنا اليوم لا يلجأ إلى الليل مسرحًا لقصصه وأحداثه، إنه يتحداك أن يخيفك في وضح النهار والشمس تتوسط السماء!

ثم رجاء أخير قبل أن نكمل الكلام.. لو كنتَ مِمَن تخيفهم قصص الرعب –مثلي– فلن أرجوك ألا تقرأ هذا الكتاب وأن تعيده إلى بائع الجرائد الذي اشتريته منه..

أرجوكَ لو كنت مثلي فلا تقرأ هذا الكتاب إلا نهاراً، وإن كنت تريد جرعة رعب متوسطة ليست قوية ولا هي ضعيفة، فاقرأه نهارًا بعيدًا عن الناس.. اختر يومًا هادئًا والبيت خالي من شاغليه وانتهز الفرصة.. وصدقني، المسألة تستحق الانتظار، واسأل مجربًا ولا تسأل طبيبًا!

انتهينا من التحذير الواجب؟

ننتقل إذن إلى أمير رعب العصر الحديث ليتعرف عليه من لا يعرفه منّا.

- ولد (ستيفن كينج) في ولاية (ماين) بالولايات المتحدة -تقع إلى الشمال الشرقي- عام ١٩٤٧، ومنذ مولده وهو لا يخرج من ولايته الأثيرة صاحبةِ الغاباتَ والمناطق الريفيةَ الممتدة والناس الطيبين بعيدًا عن المدن الكبيرة، حتى بعد أن أصبح مليونيرًا وأحد الكُتاب المعدودين في العالم ذوي النجاح المستقر المستمر على ما يزيد عن خمسة وثلاثين عاماً، ومنذ أن نشر روايته الأولى (كاري).

قال كاتبنا عن (كاري) إنه ألقى بها في سلة القمامة بعد أن كتبها، لكن زوجته –الأديبة (تابيثا كينج)– التقطتها وكانت السبب المباشر في نشر روايته الأولى التي ضمنت له نجاحًا فورياً.. قدم على إثرها أعماله

الكبرى في الثمانينات مثل (هو – It) و(الموقف - The stand) اللتان لا يقل عدد صفحاتهما عن الألف صفحة.

ثم توالت أعمال ملك الرعب في روايات لا يقل عدد صفحات أقلها عن أربعمائة صفحة، بامتداد الثمانينات والتسعينيات، حتى ختم مع أولى أعوام الألفية الجديدة روايته الأطول (البرج الأسود) صاحبة الأجزاء السبعة التي لا يقل عدد صفحاتها عن ثلاث آلاف صفحة!

ولهذا يتضح السبب في غياب ترجمات أمينة دقيقة لأعمال (كينج) الروائية، فمن منا لديه الصبر على ترجمة مئات –وأحيانًا آلاف- الصفحات في رواية واحدة؟ وأي سوق نشر عربية ستتحمل هذه الكتل الروائية الكبيرة؟

تحولت معظم أعمال (كينج) الروائية وقصصه القصيرة إلى أفلام سينمائية، وكان بعضها إنتاجًا تلفزيونياً، لكن هذا لا ينتقص من قدر الكاتب ولا أعماله واجتهاده على مدى عقود طويلة.

قدم لنا (كينج) أجناسًا كثيرة من الأدب -وليس الرعب فقط كما قد يتخيل البعض- تتراوح بين أدب التشويق والإثارة، والخيال العلمي، والفانتازيا، لكن دائمًا ما نرى خيطًا خفيًا يربط كتابته ويشدها في قالب واحد.. إنها رائحة الجنون النفاذة التي تتخلل كل أعماله. فمع (ستيفن كينج) أنت لا تخاف من مخلوقاته الرهيبة، أو من أحداثه البشعة، أو من الشر المستطير المسيطر على بعض رواياته، بل من رائحة الجنون

المسيطرة على الشخصيات.. جنون شاعري غريب أحياناً، وجنون صادم عنيف أحيانًا أخرى، وكثيرًا ما يقع جنونه في المتوسط بينهم.

مشكلة (ستيفن كينج) الكبرى وسر نجاحه الباهر هي أنه لا يقف عند حدود، ولا يعترف بأن الأدب يفترض فيه أن يكون ناعمًا رقيقًا يرتقي بالنفس الإنسانية.. إنه يصدمك ويقفز بالقذارة في وجهك أحيانًا وكأنه لا يضع أية قيمة لقارئه، أو لعله يرى القيمة في تحقيق ما يرغب فيه القارئ ولا يجرؤ على أن يحلم به، فيقدمه له وكأنه يقول: هذا ما تريده وما تستحقه وتخافه.

هذا كاتب غير تقليدي، وما ستقرئه له اليوم، يعتبر من أرقى قصصه وأكثرها ابتعادًا عن العنف الذي يتخلل أهم أعماله، حتى إن إحدى القصتين حاصلة على جائزة (أو هنري) لعام ١٩٩٦ للقصة القصيرة، وهو ما أثار دهشة الكاتب كما ستقرأ في تعليقه عليها.

لكن عزيزي القارئ.. لا تقلق.. فقد اخترنا لك جرعة دسمة من أدب الرعب رفيع المستوى، فاستعد لـ"رؤية النجوم في منتصف الظهيرة" مع (ستيفن كينج).

* * *

القصة الأولى

هو الذي يمشي خلف الصفوف

سجى الليل بعد رحيل الغسق
تهامست الذرة المحيطة ببلدة (جاتلين) وتناقلت أسرارها
كانت مسرورة راضية

رفع (بيرت) صوت الراديو؛ لأنهما على مشارف جدال جديد لا يريده أن يقع. كانت رغبته عارمة في ألا يقع.

قالت (فيكي) شيئاً، فصاح: "ماذا؟"

ـ "اخفضْ الصوت! أتريد تمزيق طبلتي أذني؟!"

أرغم نفسه على حبس ما أراد أن يمرق من بين أسنانه من كلمات وخفض الصوت.

كانت (فيكي) تُهَوِّي على نفسها بوشاحها، على الرغم من أن السيارة مكيفة..

ـ "أين نحن؟"

ـ "..نبراسكا".

نظرت إليه نظرة باردة محايدة وقالت:

ـ "أعرف أننا في نبراسكا يا (بيرت). لكنني أسألك: *أين نحن؟*"

ـ "معك الخريطة. طالعيها واعرفي. ألا تجيدين القراءة؟"

ـ "يا للذكاء. ألهذا خرجنا من الطرق الرئيسية؟ حتى نطل على ثلاثمائة ميل من الذرة، ونستمتع بذكاء وحكمة (بيرت روبسون)؟".

أمسك عجلة القيادة بقوة أبيضت معها مفاصل أصابعه.

قرر أن يحكم قبضته عليها؛ لأنه إن خففها فقد تطير إحدى اليدين وتلطم رفيقة حفل تخرج الثانوية السابقة -الجالسة إلى جواره- على وجهها. قال لنفسه: إننا نحاول إنقاذ زواجنا. أجل.. نحاول إنقاذه كما حاولنا إنقاذ القرى في فيتنام.

قال في حذر:

-" (فيكي).. أنا أقود منذ خمسمائة ميل، من بعد أن فارقنا بوسطن. قدت وحدي لأنكِ رفضتِ القيادة. ما..."

قالت (فيكي) في حرارة:

- "لم أرفض! فأنا أصاب بالصداع النصفي عندما أقود لفترات طويلة.. وعندما طلبت منك البحث في الخريطة عن بعض الطرق الجانبية قلتَ "حاضر يا (بيرت)"، كانت تلك هي كلمتك: حاضر. ثم... أحيانًا أتساءل كيف انتهيت بالزواج إليك!"

- "بكلمتين صغيرتين".

حدقت فيه للحظة بشفتين مزمومتين بيضاوين، ثم التقطت الخريطة وقلبت الصفحات في عصبية بالغة.

قال (بيرت) لنفسه إنهما اقترفا خطأ لمّا غادرا مفترق الطرق الرئيسية. يا للعار.. فحتى مفترق الطرق كانت العلاقة بينهما معقولة،

وعاملا بعضهما كآدميَّين. وكثيرًا ما تبدت له هذه الفكرة: رحلة إلى الشاطئ البعيد لزيارة شقيق (فيكي) وزوجته كمحاولة أخيرة لإنقاذ زواجهما الفاشل.. بدت له فكرة محتملة النجاح.

لكن منذ فارقا الطريق الرئيس والعلاقة تسوء. كم ساعت؟ ساعت كثيرًا في الواقع.

ـ "فارقنا الطريق الرئيس عند هامبورج. أليس كذلك"؟

ـ "فعلاً".

قالت:

ـ "ليس أمامنا شيء حتى (جاتلين). على مسافة عشرين ميلاً. إنه موضع واسع على الطريق. ترى هل لنا أن نتوقف هناك ونتناول بعض الطعام؟ أم أن جدولك المقدس سيدفعنا إلى التقدم بلا توقف حتى الساعة الثانية مثلما فعلنا بالأمس؟"

رفع عينيه عن الطريق لينظر إليها وقال:

ـ "نلتُ كفايتي منك يا (فيكي). ما رأيك أن نتوقف هنا ونعود أدراجنا إلى بيتنا ونتحدث إلى ذلك المحامي الذي تكلمتِ عنه؟ لأن ما نفعله الآن لا جدوى منـه.."

ظلت بعينيها إلى الأمام ثانية، وتجمد تعبير وجهها وكأنه من صخر.

ثم فجأة تحول إلى الدهشة والخوف..

- " (بيرت).. *انتبه فسوف تصطـ...*"

أعاد تركيزه إلى الطريق لحظة رؤيته لشيء يتلاشى تحت مقدمة السيارة. بعد لحظة وهو يضرب بقدمه دواسة الفرامل أحس بشيء يرتطم بقاع السيارة تحته بصوت مثير للاشمئزاز، ثم تدور عليه العجلات الخلفية. توقفت السيارة على خط منتصف الطريق بعد أن خفت سرعتها من خمسين ميلاً إلى الصفر بسرعة تشهد عليها علامات الإطارات السوداء على الإسفلت. قال:

- "إنه كلب. أرجوك أخبريني أنه كلب يا (فيكي)".

كان وجهها شاحبًا مصفرًا وهي تقول:

- "إنه ولد.. فتى صغير انطلق يجري من وسط الحقل ثم.. تهانئي القلبية يا أسدي!"

فتحت باب السيارة ومالت خارجها ثم تقيأت.

اعتدل (بيرت) في جلسته خلف المقود ويداه لا تفارقانه وإن خفت قبضته علي المقود. لم يدرك شيئًا لوهلة بخلاف رائحة السماد النفاذة السوداء.

ثم إنه رأى (فيكي) وقد خرجت، فطل من خلال المرآة الجانبية عليها وهي تسير متعثرة عائدة إلى الجسد المسجى وكأنه كومة ثياب رثة.

أعتاد عليها أنثى رشيقة، لكن الرشاقة فارقتها.. سُرقت منها.

هذه جريمة قتل غير متعمدة. هذا هو اسم جريمتي. فقد أبعدت عيني عن الطريق.

أطفأ المحرك وخرج. همست الرياح بنعومة بين عيدان الذرة العالية بطول قامات الرجال فانبعث منها صوتًا غريبًا كالشهيق والزفير. وقفت (فيكي) عند كومة الثياب وسمعها تبكي.

بلغ منتصف الطريق بين السيارة وموضعها قبل أن يلفت شيءٌ انتباهَهُ إلى يساره.. بقعة حمراء زاهية وسط كل ذلك الاخضرار.. براقة لامعة كطلاء حديث.

تجمد في مكانه ورمق الذرة بعينيه. اكتشف أنه يفكر -محاولاً تشتيت ذهنه عن كومة الثياب تلك التي ليست كومة ثياب حقًا- في جمال هذا الموسم المناسب لنمو الذرة. كانت العيدان متقاربة كثيفة وكأنها تحتفي بمقدم أيام الحصاد. تكاد تحيطه الرغبة في الولوج إلى قلب تلك الصفوف المرتبة المهندمة الظليلة وقضاء يومه في محاولة للخروج من جديد. لكن الصفوف المرتبة انكسر نظامها ها هنا. عيدان ذرة طويلة عديدة انكسرت ومالت على بعضها. ترى ما هذا الشيء في قلب الظلال خلف الأعواد المكسرة؟

صرخت (فيكي) فيه:

- "بيرت! ألا تريد رؤية ما اقترفته يدك؟ ألا تريد أن ترى كي تتلو على أصحابك أصحاب البوكر مغامرتك في نبراسكا؟ ألا.."

لكن باقي جملتها التهمتها عبراتٌ جائعة طازجة. ورأى ظلها كثيفًا متجسدًا حول قدميها.. إنه منتصف النهار.

أحاطته الظلال الكثيفة لمّا ولج إلى قلب الذرة. الطلاء الأحمر البراق دم.. ثمة طنين هادئ لذبابات تطير وتدور وتحط وتطير من جديد.. ربما ذهبت تخبر الذبابات الأخريات، ها هو ذا المزيد من الدم على الأوراق. مؤكدة أنه لم يتناثر كل هذه المسافة. ثم وهو واقف عند الشيء الذي رآه من الطريق.. التقطه.

كانت الصفوف المرتبة المهندمة حائرة النظام ها هنا. عيدان عديدة تميل وتنحرف وكأنها مخمورة، اثنان منها مكسورة مخلوعة. الأرض محفورة بفعل أقدام حافية حطت عليها. ثم الدم، همست الذرة. ارتجف قليلاً ثم عاد إلى الطريق.

أصيبت (فيكي) بهستريا البكاء وأخذت تصرخ فيه بكلمات لم يتبينها.. تبكي وتضحك وتصرخ. ما كان ليتنبأ بنهاية ميلودرامية على هذا النحو. نظر إليها وأدرك أنه لا يعاني من أزمة هوية أو نقلة حياتية صعبة أو أي من بواعث تقلب الأحوال. كان يكرهها كراهية خالصة لا علاقة لها بالمزاج. لطم وجهها بيده بقوة.

استكانت ورفعت يدها تضغط بأصابعها على موضع الاحمرار.

قالت بلهجة مهددة في كلمات بطيئة:

- "ستدخل السجن يا (بيرت)".

قال:

- "لا أعتقد".

ثم أراح الحقيبة التي وجدها في الذرة عند قدميه.

- "ما الذي..؟"

- "لا أعرف. ربما هي ملكه".

أشار إلى الجسد المسجى على وجهه فوق الإسفلت. فتى لم يتجاوز الثالثة عشر كما بدا من مظهره.

كانت الحقيبة قديمة. جلدها البني مهترئ مشقق. يدور حولها شريط قماشي ملفوف لفتين. ركعت (فيكي) لتفك الرباط ورأت الدم يلطخ العقدة فتراجعت.

ركع (بيرت) وأدار الجسد بيده. قالت (فيكي) وهي تحدق في قلة حيلة:

- "لا أريد النظر".

وحين التفت إليهما الوجه الحالم ذو العيون الواسعة التي لا ترى لينظر إليهما، صرخت ثانية. كان وجه الفتى قذراً، ووجهه يحمل لمحة من الرعب، وحلقه ممزق.

نهض (بيرت) ولف يديه حول (فيكي) التي بدأت تترنح.

قال بهدوء بالغ:

- "لا تفقدي الوعي. هل تسمعيني يا (فيكي)؟ لا تفقدي الوعي".

كرر الكلمات على مسامعها كثيراً، وعندما بدأت تعود إلى وعيها أمسكت به في قوة. وكأنهما يرقصان.. هناك وسط الطريق وجثة الصبي مسجاة عند أقدامهم.

- "فيكي؟"

- "ماذا؟"

صوتها المكتوم يداعب قميصه.

- "عودي إلى السيارة وضعي المفاتيح في جيبك. اخرجي البطانية من المقعد الخلفي وهاتي بندقيتي. أحضريها إليّ هنا".

- "البندقية؟"

- "هناك من قطع رقبته. ربما هو واقف يراقبنا الآن"..

ارتفع رأسها مبتعدًا عن صدره واتسعت حدقتاها وهي تحيط حقل الذرة بعينيها.. أدركته يمتد امتداد الأفق وعلى قدر ما ترى العين، يسري أعلى وأسفل وهاد الأرض الطينية الضحلة.

- "أعتقد أنه رحل. لكن لم المخاطرة؟ اذهبي. افعلي كما قلت".

سارت بصعوبة عائدة إلى السيارة وظلها يتبعها.. قرين حسن الطالع مظلم الهيئة يتبعها في هذه الساعة من النهار.

ثم إنها مالت على المقعد الخلفي.

لكن (بيرت) ركع إلى جوار الصبي. ذكر أبيض بلا علامات مميزة.. ضربته السيارة ومرت فوقه لكنها لم تقطع رقبته. كانت الرقبة مقطوعة بنصل غير حاد وبلا مهارة تذكر.. لم يتلق القاتل تلقينًا من صَفّ الجيش عن كيفية الاغتيال اليدوي بالسلاح الأبيض.. لكن الضربة مميتة. تعرض الصبي للسحل مسافة ثلاثين قدمًا وسط الذرة.. سواء فارقته الحياة أو ما زال متمسكًا بأهدابها بجراح مهلكة. ثم مرت سيارة (بيرت روبسون) فوقه. إذا كان الفتى ما زال على قيد الحياة حين تعرض لصدمة السيارة، فإن حياته قد انتهت قبل المقدر لها من دون السيارة بثلاثين ثانية على الأكثر.

طرقت (فيكي) على كتفه بإصبعها فأجفل.

كانت واقفة وفي يدها اليسرى بطانية الجيش البنية، والبندقية في يمناها، وعينيها مشتتة. اخذ منها البطانية وفردها على الطريق. لف الصبي فيها فتأوهت (فيكي) بصوت مكتوم.

رفع بصره إليها وقال:

- "هل أنت بخير يا (فيكي)؟"

قالت في صوت مريب:

- "بخير".

لف أطراف البطانية حول الجسد ثم رفعها وحملها ثقيل على ظهره. أمسك بها في حذر ثم سار عائدًا إلى السيارة.

قال في صوت مختنق:

- "افتحي حقيبة السيارة".

كانت الحقيبة الخلفية عامرة بأغراض الطريق والسفر.. حقائب وتذكارات وهدايا. نقلت (فيكي) معظمها إلى المقعد الخلفي، وألقى (بيرت) بالجثة في المساحة الشاغرة، ثم أغلق الحقيبة، وتنفس الصعداء.

رأى (فيكي) واقفة إلى جوار باب السيارة الأمامي الأيسر، وما زالت البندقية في يدها.

- "أعيديها إلى الداخل واركبي".

نظر إلى ساعته وأدرك أن خمس عشرة دقيقة مرت. بدت له كساعات.

سألته:

- "وماذا سنفعل بالحقيبة؟"

هرول عائدًا على الطريق حيث استقرت الحقيبة على الخط الأبيض المرسوم على الإسفلت، وكأنها نقطة منتصف لوحة من المدرسة التعبيرية. رفع الحقيبة من يدها الرثة وتجمد في مكانه للحظة. راوده إحساس قوي بأنه تحت المراقبة. إحساس يعرفه من قراءته للكتب.. القصص البوليسية الرخيصة، ولم يواته بشأن إحساسه من الشك إلا القليل. ثم غاب الشك تمامًا. وكأن هناك أشخاص في حقول الذرة، ربما أشخاص كثر، يفكرون ويحسبون.. هل تتمكن المرأة من إخراج البندقية من السيارة واستخدامها قبل أن يقبضوا عليه ويجرونه إلى الصفوف الظليلة ويقطعوا رقبته؟

عاد إلى السيارة بقلب متوجس وأخرج المفاتيح من فتحة مفتاح حقيبة السيارة ثم ركب.

سمع (فيكي) تصرخ ثانية. تحرك (بيرت) بالسيارة، وبعد دقيقة لم يتمكن من إدراك النقطة التي توقفوا عندها في مرآة السيارة الجانبية.

تساءل:

- "ما هي البلدة التالية التي ذكرتها؟"

انحنت على الخريطة ثانية وقالت:

- "(جاتلين). قد نصلها بعد عشر دقائق".

- "هل تبدو كبيرة بما يكفي لاستيعاب نقطة شرطة؟"

- "لا. إنها مجرد نقطة على الخريطة".

- "ربما بها مأمور".

تقدمت بهم السيارة لبرهة في صمت. مرا بخزان حبوب إلى يسارهم. لا شيء غير الذرة. ولا سيارة مرقت إلى جانبهم في الطريق العكسي، ولا حتى شاحنة أحد المزارعين.

- "هل مر إلى جوارنا أي شيء منذ فارقنا الطريق الرئيسي يا (فيكي)؟"

فكرت ثم قالت:

- "سيارة وجرار. عند تقاطع الطريق الرئيسي مع هذا".

- "لا. منذ ولجنا هذا الطريق.. طريق ١٧".

- "لا. لا أعتقد أننا مررنا بشيء".

قبلها كان التصريح بمثل هذه الملاحظة ينفع مقدمة مناسبة للشجار. لكنها حدقت أمامها عبر نصيب عينيها من زجاج السيارة الأمامي، وطلت على خط لا ينقطع عند الأفق.

- "(فيكي)؟ هل تقدرين على فتح الحقيبة؟"

- "أترى هذا مهم؟"

- "لا أعرف. ربما".

وهي تعالج العقد بيديها أدار (بيرت) الراديو ثانية.. وكان وجهها يحمل تعبيرًا غريباً.. وجه مصمت لكنه مزموم الشفاه.. حتى إن (بيرت) تذكر تعبير وجه أمه وهي تنظف الدجاج من الأمعاء في أيام الآحاد.

كانت محطة الموسيقى التي يستمعون إليها تحت هجوم من الضوضاء الإستاتيكية القوية، فأدار (بيرت) الراديو وتحرك المؤشر الأحمر ببطء. تقارير عن الزراعة. (باك أوينز). (تامي وينديت). كلها أصوات بعيدة مشوهة. ثم وحين اقترب المؤشر من الطرف اخترقت كلمة واحدة سماعة الراديو.. عالية مجلجلة وكأن الشفتين التي نطقتها مستقرة خلف غطاء السماعة:

- *"الاقتداء!"*

صدرت بصوت مدو.

عبر (بيرت) عن دهشته بصوتٍ وجل، وجفلت (فيكي) وقفزت من مقعدها.

- *"دم الحمل وحده هو الذي سينقذنا"*

انطلق الصوت الزائر فخفض (بيرت) الصوت. هذه المحطة قريبة. قريبة حتى إنه يراها. ها هي. برج الراديو يطل أحمر اللون ثلاثي القواعد من وسط أفق الذرة.

عاد الصوت يؤكد وقد انخفضت حدته:

- "الافتداء هو كل شيء أيها الأخوة والأخوات".

وبعيدًا في خلفية الخطبة غمغمت الأصوات مصدقة على القول.

- "البعض يرون الخروج إلى العالم سهلاً، وكأن لنا أن نعمل ونسير على وجه الأرض دون أن تلوثنا الدنيا. فهل هذا ما علمنا الرب إياه؟"

بعيدًا عن الميكروفون لكن بصوت جماعي مرتفع:

- "لا!"

صاح المبشر:

- "*خذ بيدنا يا يسوع المقدس في السماء*"

وخرجت كلماته قوية يحركها الإيقاع وكأنها نغمات أغنية روك آند رول رتيبة تستحوذ على العقول:

متى سيعرفون أن هذا هو طريق الهلاك؟ متى سيعرفون أن أجور الدنيا تؤتى على الجانب الآخر؟ هه؟ هه؟ قال الرب إن هناك قصور مشيدة في جنته. لكن لا مكان فيها للزاني، ولا مكان فيها للطماع، ولا مكان فيها لمدنس الذرة، ولا مكان فيها للشواذ، ولا مكان فيـ..

أغلقت (فيكي) الراديو وقالت:

- "كلامه مزعج".

تساءل (بيرت):

- "ماذا قال؟ ماذا قال عن الذرة؟"

قالت وهي تعالج ثاني عقدة:

- "لم أسمع".

- "قال شيئًا عن الذرة. أنا واثق من هذا".

قالت (فيكي):

- "انتهيت".

ثم انفتحت الحقيبة على حجرها. في تلك اللحظة كانوا يمرون بلافتة على الطريق كتب عليها: << (جاتلين) خمسة أميال. قد بحذر حرصًا على حياة أطفالنا >> وكان فيها ثقوبًا ناتجة عن رصاصات عيار ٢٢مللي .

قالت (فيكي):

- "جوارب. سروال.. قميص.. حزام.. سلسلة عنق قماشية بـ.."

رفعتها لتريه حلية السلسلة الرثة متسائلة:

- "من هذا؟"

نظر (بيرت) إليها وقال:

- "صورة لـ (هوبالونج كاسيدي) على ما أعتقد".

أعادتها إلى الحقيبة وبدأت تبكي ثانية.

بعد لحظة قال (بيرت):

- "ألم يثر ريبتك أي شيء في خطبة الراديو تلك؟"

- "لا. سمعتُ ما يكفيني من الخطب طوال حياتي وأنا طفلة. قلت لك هذا من قبل".

- "ألا ترين أن صوت المبشر كان صغيراً؟"

أطلقت ضحكة لا بهجة فيها وقالت:

- "لعله مراهق، ما المشكلة؟ إنهم يحبون الاستحواذ على عقولهم وهي ما زالت غضة طرية. يغذونهم بالتوازنات العاطفية. كان يجب أن تحضر أي من تلك الاجتماعات في الخيام التي جرني أبي وأمي إليها.. وفي بعضها (خلصوا) روحي.

- "سمعت بابي هورتينس.. أعجوبة غناء المزامير. كانت في الثامنة من عمرها. كانت تغني: نميل على أذرع الأبدية، وأبوها يمرر طبقًا ويقول للجمع: هيا لتخرج أيديكم مثقلة من الجيوب، ولا تخذلوا الابنة هذه.. وأذكر (نورمان ستاتون). كان يخطب عن نار جهنم وهو يرتدي سترة أنيقة بسروال قصير. كان عمره سبعة أعوام".

نظرت إلى تعبير الذهول المرتسم على وجهه.

- "ولم يكونا اثنين فقط. هناك الكثيرون منهم.. أذكر (روبي ستامبنيل). كانت في العاشرة من عمرها. والإخوة (جرايس). وهه.."

أدار رأسه إليها وقال:

- "ما الأمر؟"

ونظر إلى ما في يدها. كانت تنظر إلى ما تحمل في استغراق تام. رفعته بيدها أثناء كلامها. مال (بيرت) عليها ليلقي نظرة، فمنحته الشيء دون أن تنطق.

كان صليبًا مصنوعًا من قشور الذرة الخضراء.. كانت خضراءً ثم حال لونها وجفت. ومربوط إليها -بشعر الذرة الحريري- ثمرة ذرة قزمة نزعت عنها معظم حباتها بمطواة. والحبات الباقيات تشكل جسدًا مصلوبًا أصفر بلون حبوب الذرة. عيون من حبوب الذرة.. أذرع ممتدة من حبوب الذرة ، وفوق التصميم أربعة حروف لاتينية منقوشة: I N R I.

- "(فيكي). ربما ترغب الشرطة في الإطلاع عليها".

- "لماذا؟"

- "لا أعرف لماذا.. ربما.."

قاطعته:

- "ألق بها. هلا فعلت هذا من أجلي؟ لا أريدها في السيارة".

- "سأعيدها إلى الحقيبة. وما إن نقابل رجال الشرطة حتى نتخلص منها. أعدك بهذا. اتفقنا؟"

صاحت فيه:

- "لتفعل ما تشاء! أنت حر!"

أعادها منزعجًا إلى الحقيبة حيث حطت على كومة الملابس. كانت العيون المنحوتة في الذرة تحدق فيه على هدي النور المتسرب إلى السيارة من فتحة السقف. تحرك ثانية وسمع الحصى يطقطق تحت العجلات.

وعدها قائلاً:

- "سنسلم الجثة وكل شيء في الحقيبة إلى الشرطة.. سنتخلص من كل شيء تماماً".

لم تجبه (فيكي). أخذت تنظر إلى يديها. وبعد ميل تراجعت حقول الذرة الأبدية عن الطريق، لتحل محلها بيوت المزارعين ومبانيها الملحقة. وفي أحد أفنية البيوت شاهدا دجاجة قذرة تنقر الأرض بلا توقف. وعلى أسقف وجدران البيوت الريفية شاهدا إعلانات مشروبات غازية ولبان. مرا بإعلان يقول: << يسوع وحده هو المخلص>>. مرا بكافتيريا ملحق بها محطة وقود، لكن (بيرت) أراد مركز البلدة أولاً إذا كان لها مركزًا. إن لم يكن فليعد إلى الكافتيريا. وخطر له بعد أن مرا بها أن ساحة الانتظار خالية إلا من شاحنة قذرة قديمة وكانت عجلاتها خالية من الهواء.

بدأت (فيكي) تضحك فجأة.. ضحكات عالية صاخبة.. فأدرك (بيرت) أنها على وشك حالة هسترية أخرى.

- "ما المضحك؟"-

قالت وهي تشهق من الضحك:

- "لافتات الطريق. ألم تقرأها؟ لم يطلقوا على هذه المنطقة الحزام الإنجيلي[1] عبثاً. يا ربي.. ها هي مجموعة لافتات أخرى".

ثم انطلقت في نوبة ضحك هستيرية أخرى وهي تصفق بيديها على فمها.

كانت كل لافتة تحمل كلمة واحدة. رآها مستقرة أعلى عصا بيضاء غُرست في الرمال منذ فترة بعيدة كما أوحى له لونها الحائل.

كل لافتة على مسافة ثماني ياردات من السابقة عليها:

(سحابة.. نهاراً.. عمود.. نار.. ليلاً)

قالت (فيكي) وهي ما زالت تضحك:

- "نسوا شيئًا واحداً".

---

[1] الحزام الإنجيلي Bible Belt: هي منطقة في الولايات المتحدة يغلب عليها التدين أكثر من غيرها من المناطق، وتسود فيها البروتستانتية، وهي ممتدة في الربع الجنوبي الشرقي من خريطة الولايات المتحدة. كما توجد نفس الظاهرة في دول أخرى مثل كندا والسويد والنرويج وهولندا. (المترجم)

سألها (بيرت) مقطب الجبين:

- "ما هو؟"

قالت وهي تحاول كتم ضحكاتها بقبضتها المضمومة التي وضعتها لصق فمها:

- "استعملوا كريم حلاقة بورما!"

لكن ضحكاتها استمرت مثل مشروب فوار تعرض للرج.

- "(فيكي). هل أنتِ بخير؟"

- "سأكون بخير. بعد أن نبتعد ألف ميل عن هنا ونصبح في (كاليفورنيا) الخطاءين المشمسة، وجبال (روكي) تفصل بيننا وبين (نبراسكا)".

مجموعة لافتات أخرى قرأها في صمت.

(خذوا.. وكلوا.. هكذا.. تكلم.. الرب).

قال (بيرت) لنفسه:

- لكن لماذا أربط بين الأكل والذرة؟ أليس هذا ما يقال في العشاء الرباني؟ فترة طويلة تفصل بينه وآخر مرة ذهب فيها إلى الكنيسة حتى إنه لا يذكر. لن يندهش لو كان الخبز المقدس هنا مصنوعًا من دقيق الذرة. فتح فمه ليذكر الفكرة لـ (فيكي)، لكنه عدل عن رأيه.

ارتقت السيارة مرتفعًا صغيرًا ثم وجدا (جاتلين) أمامهما.. مكونة من ثلاثة بلوكات، وكأنها موقع تصوير فيلم عن الكساد الكبير[2].

قال (بيرت):

- "سنجد مأمورًا هنا"، ثم تساءل لم أصابه مرأى هذه البلدة المسطحة التي تغمرها الشمس بخوف ملأ صدره.

مرا بلافتة طريق تؤكد أن السرعة القصوى للسيارات العابرة لا يجب أن تزيد عن ثلاثين ميلاً، ثم لافتة أخرى تقول:

<< أنت تدخل إلى (جاتلين) الآن. أجمل بلدة صغيرة في (نبراسكا).. أو في أي مكان آخر! >>

أشجار (دردار) يذروها الغبار منتصبة على الجانبين، ومعظمها ذابلة.

مرا بمركز أخشاب (جاتلين)، ثم محطة الوقود. مرا بشارع (إلم)، ثم شارع (بيرش)، ثم مركز البلدة. كانت البيوت مصفوفة على جانبي الطريق مشيدة من الخشب ولها شرفات أمامية. بيوت بزوايا حادة،

---

[2] فترة الكساد الكبير التي غمرت العالم في نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن العشرين. تميزت بنسب بطالة عالية وإشهار مؤسسات وشركات كثيرة لإفلاسها مع انهيار البورصات وما إلى ذلك من مظاهر الكساد، وعانت منها الولايات المتحدة كثيراً. (المترجم)

ومماشي عشبية صفراء وقاحلة. وأمامهم سار كلب ببطء بعرض شارع (مابل)، ثم توقف لينظر إليهما للحظة قبل أن يرقد على الإسفلت وأنفه يداعب مخالبه. قالت (فيكي):

- "توقف. توقف هنا".

توقف (بيرت) إلى جانب الطريق في طاعة.

- "استدر بالسيارة وعد. لنأخذ الجثة إلى (جراند أيلاند). إنها ليست بعيدة، أليس كذلك؟ هيا".

- "فيكي. ما المشكلة؟"

سألته وصوتها يرتفع في حدة:

- "ماذا تعني بما المشكلة؟ هذه البلدة فارغة يا (بيرت). لا أحد هنا غيرنا. ألا تشعر بهذا؟"

أحس بشيء وما زال يراوده الإحساس به. قال:

- "إنها تبدو خاوية. لكن مؤكد أن السكان مجتمعون في مركز البلدة مثلاً يحضرون سوقا للمخبوزات أو يلعبون بينجو".

- "*لا أحد هنا*"..

خرجت كلماتها غريبة قوية..

- "ألم تر محطة الوقود التي مررنا بها؟"

- "بالطبع. القريبة لمتجر الأخشاب، ما المشكلة؟"

كان عقله مركزًا على شيء آخر، ينصت إلى الحشرات وسط أشجار الدردار القريبة. شم رائحة الذرة.. والزهرات المغطاة بالتراب، والسماد. لأول مرة خرجوا عن الطرق الرئيسية ودخلوا إلى قلب بلدة. بلدة في ولاية لم يزرها من قبل قط، وإن طار فوقها في رحلات داخلية من قبل، وأحس أن كل ما يحدث خطأ، لكن ترتيبه حسن. فعلى مسافةٍ ما أمامهم، سيجد محل بقالة يبيع المشروبات الغازية، وسينما اسمها (سينما بيجو)، ومدرسة باسم (جون كينيدي).

- "(بيرت). كانت أسعار البنزين هناك خمسة وثلاثين سنتًا للتر وثمانية وثلاثين سنتًا للأوكتان. منذ متى وأسعار البنزين كذلك؟!"

أعترف قائلاً:

- "منذ أربعة أعوام على الأقل. لكن يا (فيكي) ..."

- "إننا في قلب البلدة يا (بيرت) ولا توجد سيارة واحدة! *ولا سيارة واحدة!*"

- "(جراند إيلاند) على مسافة سبعين ميلاً. كيف نأخذه إليها عبر كل هذه المسافة؟"

- "لا يهمني".

- "اسمعي.. لنبحث عن محكمة البلدة و.."

- "لا!"

اللعنة. هذا هو تفسير فشل زواجنا باختصار شديد.. لا.. سأفعل ما أريد، وإن رفضتَ سأكتم أنفاسي حتى اختنق أو تحقق لي ما أرغب فيه.

قال:

- (فيكي) ..

- "أريد الخروج من هنا يا (بيرت)".

- "(فيكي) اسمعيني".

- "درْ بالسيارة ودعنا نخرج من هنا".

- "(فيكي). هلا صمت للحظة؟"

- "سأصمت عندما تدور بالسيارة في الاتجاه العكسي. والآن هيا بنا".

معنا طفل ميت في حقيبة سيارتنا!

زأر فيها بأعلى صوته واستمتع قليلاً لمّا رآها تجفل ووجهها يضطرب. ثم أكمل في صوت أقل ارتفاعًا بقليل:

- "قطعوا رقبته ثم ألقوا به على الطريق ثم مرت سيارتي فوقه. والآن سأذهب إلى المحكمة أو إلى أي مكان لديهم هنا، سأبلغ عما حدث. إذا أردتِ السير إلى الطريق الرئيس فاذهبي. سآتي خلفك والتقطك من الطريق. لكن لا تأمريني بالالتفاف والعودة سبعين ميلاً إلى (جراند

إيلاند) وكأن ما معنا في حقيبة السيارة كيس نفايات. إنه ابن لأم، وسأبلغ عن الحادث قبل أن يفر من قتله بجرمه".

قالت وهي تبكي:

- "ماذا أفعل معك هنا؟"

- "لا أعرف.. لم أعد أعرف. لكن يمكن تعويض ما جرى يا (فيكي)".

ابتعد بالسيارة عن جانب الطريق. رفع الكلب رأسه للحظة مع صرير العجلات ثم خفضه ثانية.

تقدمت السيارة مسافة ما بقي من البلوك. وعند تقاطع شارع (ماين) مع (بليسنت) تفرق (ماين) إلى فرعين. ها هو مركز البلدة.. ساحة انتظار معشوشبة. وعلى الجانب الآخر حيث يتوحد شارع (ماين) من جديد كانت هناك مباني رسمية المظهر. تمكن (بيرت) من قراءة كلمة "مركز بلدية (جاتلين)" على أحدها.

قال:

- "ها هي".

لم تنطق (فيكي).

بعد أن قطع نصف المسافة إلى الميدان توقف (بيرت) ثانية. كان إلى جوارهم مطعم وبار (جاتلين).

تساءلت (فيكي) في انزعاج لمّا فتح الباب:

- "إلى أين تذهب؟"

- "لأعرف أين ذهب الجميع. توجد لافتة (مفتوح) معلقة على الباب".

- "لن أدعَكَ تتركني هنا وحدي".

- "إذن تعالي. ماذا يمنعك؟"

فتحت بابها وخرجت وهو يعبر من أمام السيارة. رأى وجهها الشاحب وأحس بلحظة من الشفقة. شفقة يائسة حائرة.

سألته وهو ينضم إليها:

- "هل سمعت هذا؟"

- "سمعت ماذا؟"

- "العدم. لا سيارات ولا بشر ولا جرارات. لا شيء"..

ثم ومن مسافة بلوك منهما سمعا ضحكات عالية جذلة لبعض الأطفال.

قال:

- "أسمع أطفالاً. ألا تسمعين؟"

نظرت إليه في اضطراب.

فتح باب المطعم وخطى إلى قلبه الحار الجاف.

كانت الأرض مغمورة بالتراب، وأسطح المطعم اللامعة صدئة. مروحة السقف خشبية الأطراف ساكنة. المواد خالية والمقاعد لا يشغلها أحد. لكن المرآة الواقعة خلف "الكاونتر" كانت مهشمة.. ثم رأى شيئًا آخر.. كل زجاجات البيرة مهشمة. رآها على وكأنها بقايا حفل مجنوّن.

سمع صوت (فيكي) قريب من الانهيار..

- "بالطبع. هيا نسأل أي من هؤلاء. عذرًا يا سيدي، هل يمكن أن تخبرنا أين.."

- "اصمتي.."

لكن صوته كان خاويًا لا قوة فيه.

ها هما واقفان في بار تغمره شمس الظهيرة المغبرة عبر الزجاج الخارجي، ومرة أخرى أحس بأن هناك من يراقبه وفكر في الولد الراقد في حقيبة السيارة، وضحكات الأطفال الصاخبة.

طرقت عقله جملة ما بلا سبب.. جملة وكأنها من كتاب قانون، وبدأت تتكرر مرارًا وتكرارًا في ذهنه: *مشهد غير منظور، مشهد غير منظور.*

ارتحلت عينه إلى الكروت المصفرة بفعل الزمن خلف الكاونتر.

(تشيز برجر) خمسة وثلاثون سنتًا. أفضل شطائر العالم عشر سنتات. فطيرة فراولة خمسة وعشرون سنتًا. وجبة اليوم لحم وصلصة وبطاطس مهروسة ثمانون سنتًا.

متى كانت آخر مرة رأى فيها هذه الأسعار؟

جاءه الجواب من (فيكي) التي قالت في حدة:

- "انظر إلى هذا".

كانت تشير إلى نتيجة على الجدار.. "قائمة الأسعار هذه عمرها اثني عشر عاماً".. ثم ضحكت في غيظ. اقترب من الإعلان المحمول على نتيجة الحائط ليرى عليه صورة ولدين يسبحان في بركة. تحت الصورة كانت الجملة:

(تحية من متجر (جاتلين) للأخشاب. اكسرها ونحن نصلحها)

كان الشهر هو أغسطس ١٩٦٤.

قال متردداً:

- "لا أفهم.. لكنني واثق من.."

قالت في هستريا:

- "أنت واثق! طبعًا أنت واثق! هذا جزء من مشكلتك يا (بيرت)، فقد قضيت عمرك كله *واثقًا!*"

التفت ثانية إلى الباب ولحقت هي به.

- "إلى أين تذهب؟"

- "إلى مركز البلدية".

- "بيرت.. ما سبب عنادك؟ تعرف أن هناك شيءٌ مريبٌ . لم لا تعترف؟"

- "أنا لستُ عنيداً. بل أريد التخلص مما في حقيبة السيارة".

خرجا إلى الرصيف، لكن (بيرت) ذهل ثانية لمّا أحاط به سكون البلدة من جديد، ورائحة السماد. لا أحد يفكر في تلك الرائحة عندما يأكل الذرّة ويعضها بأسنانه.

الشمس والأمطار وفوسفات بشري وبعض نفايات الأبقار. لكن هذه الرائحة مختلفة عن التي عرفها في ريف (نيويورك) حيث نشأ. لك أن تقول ما شئت عن الأسمدة العضوية، لكنها رائحة فيها الكثير، أكثر من السماد. ليست بالرائحة الطيبة قطعاً، لكن حين تنتشر على الحقول في ساعات العصر يحملها النسيم الربيعي على امتداد الطين المحروث.. وتراها رائحة طيبة أصيلة. تعني أن الشتاء انقضى، وأن أبواب المدارس ستوصد لستة أسابيع وتلفظ أولادها إلى الصيف.

رائحة مرتبطة في عقله بالعطر.. العشب.. البرسيم.. طين الأرض.. الأعشاب البرية على حواف الحقول.

لكن فيها شيئًا مختلفًا ها هنا. رائحة قريبة لكنها ليست مماثلة لما في ذاكرته. فيها رائحة حلوة حلاوة زائدة.. رائحة الموت. وهو معاون طبي في فيتنام تعرف على تلك الرائحة.

كانت (فيكي) جالسة في صمت داخل السيارة وعلى حجرها الصليب -المصنوع من الذرة- يحدق فيها باستغراق لم يرتح له (بيرت).

قال:

- "ابعدي هذا الشيء".

قالت دون أن ترفع عينيها إليه:

- "لا. لتلعب ألعابك وتتركني ألعب ألعابي".

أدار محرك السيارة ودار بها إلى الناصية. رأى إشارة مرور عالية أمامه تتأرجح مع الرياح. وإلى اليسار كنيسة بيضاء أنيقة. كان عشب حديقتها مشذباً. أزهارها النظيفة تنمو على حواف الممشى العشبي المفضي إلى الباب. توقف (بيرت).

- "ماذا ستفعل؟"

قال (بيرت):

- "سأدخل وألقي نظرة. إنه المكان الوحيد في البلدة الذي لا تعلوه طبقة غبار عمرها عشر سنوات. ثم انظري إلى لوحة إعلانات الكنيسة".

نظرت، قرأت كلمات مكتوبة بيضاء تحت الغطاء الزجاجي للوحة:

<< بقوة وفعل هو الذي يمشي خلف الصفوف >>

كان التاريخ الملحق بالعنوان ٢٧ يوليو ١٩٧٦.. الأحد الماضي.

قال (بيرت) وهو يطفئ المحرك:

- "هو الذي يمشي خلف الصفوف. أحد آلاف الأسماء للرب في (نبراسكا) على ما أعتقد. هل ستأتي؟"

لم تبتسم..

- "لن أذهب معك".

- "حسنًا. كما شئت".

- "لم أدخل كنيسة منذ غادرت بيت أهلي ولا أريد دخول هذه الكنيسة، ولا أريد البقاء في هذه البلدة يا (بيرت). أكاد أجن من الخوف، لم لا نرحل؟"

- "سأغيب دقيقة".

- "معي مفاتيحي يا (بيرت). إذا لم تعد خلال خمس دقائق، سأبتعد وأتركك وحدك هنا".

- "رفقًا يا امرأة".

- "هذا ما سأفعله. إلا إذا اعتديت عليّ كأي لص حقير وأخذت مفاتيحي. هيا.. لم لا؟"

- "تعرفين أنني لن أفعل".

- "لا".

كان كيس نقودها على المقعد مستقر بينهما.

اختطفه.. صرخت وأمسكت بحمالته. أبعدهُ عن متناول يديها، ودون أن يحاول حتى البحث بأصابعه داخله، قلب الكيس رأسًا على عقب ليسقط منه كل شيء. رأى حلقة مفاتيحها تلمع بين المناديل الورقية ومستحضرات التجميل والنقود وقوائم مشترياتها القديمة. مدت يدها إليه لكنه ضربها بيده ووضع المفاتيح في جيبه.

قالت وهي تبكي:

- "ما كان يجب أن تفعل هذا. اعطني المفاتيح".

قال:

- "لا"، ثم ابتسم لها ابتسامة قاسية..

- "لا يمكن".

مدت يدها ترجوه:

- *"من فضلك يا (بيرت)! أنا خائفة"*

- "ستنتظرين دقيقتين ثم تقررين أن وقت الرحيل حان".

- "لن أفعل.."

- "ثم تبتعدين وحدك وأنت تضحكين وتقولين لنفسك: سيُعَلِّم ما فعلته (بيرت) درسًا لن ينساه.. لن يعبث معي ثانية. أليس هذا كل ما تسعين إليه طوال حياتنا الزوجية؟ أن تلقني (بيرت) دروسًا؟"

خرج من السيارة.

صرختْ فيه وهي تميل خارج المقعد:

- "أرجوك يا (بيرت). اسمعني.. انظر.. سنخرج من البلدة ونتصل بالشرطة من كابينة تليفون، موافق؟ معي عُمَلٌ كثيرة. لا يمكن.. لا.. *لا تتركني هنا وحدي يا (بيرت)، لا تتركني هنا وحدي!*"

أغلق الباب في وجه نحيبها ومال إلى جانب السيارة للحظة. أخذت تضرب جانب السائق من الزجاج الأمامي وتنادي عليه.

يا للانطباع الرائع الذي ستتركه على رجال الشرطة حين يجد من يتولى مسئولية جثة الصبي.

دار على عقبيه وسار على الرصيف إلى أبواب الكنيسة. بعد دقيقتين أو ثلاثة سيعود، بعد أن يلقي نظرة سريعة ويخرج.

المرجح أن الباب ليس موصداً.

انفتح الباب أمامه بيسر.. مفاصله مزيته.. خطى إلى رواق الكنيسة البارد.. أحس برعدة مفاجئة. استغرق لحظات قبل أن تعتاد عيناه الظلام.

أول شيء لاحظه كانت كومة من حروف الأبجدية المجسمة في ركن قصي، مغبرة ومختلطة. ذهب إليها في فضول. بدت له قديمة منسية مثل نتيجة الحائط في المطعم، وعلى خلاف باقي الرواق الخالي من الغبار.

كانت الحروف تبلغ في الارتفاع قدمين، ومن الواضح أنها جزء من مجموعة أبجدية كاملة.

نشرها على البساط فوجدها عشرين فأخذ ينقل ويغير مواضعها ليصل إلى معنى.. بدأ يغير ويبدل. هذا غباء. ها هو ذا جالس يلعب بالحروف في الكنيسة تاركًا (فيكي) في السيارة يكاد يجن جنونها..

ك- ن – ي – س – ة.. ثم: *م – ع – م – د – ا – ن – ي – ة*..

بقيت حروف: *ف – ض – ل – ا – ل – ر – ب*..

"كنيسة فضل الرب المعمدانية"

لابد أن الحروف كانت معلقة في صدر الكنيسة بالخارج. هناك من أنزلها وألقى بها بلا مبالاة في هذا الركن المنعزل من الكنيسة.

لماذا؟..

لم تعد كنيسة (فضل الرب المعمدانية)، هذا هو السبب.

أيُ كنيسة هذه إذن؟

لسبب ما ألقى السؤال بالخوف في قلبه فاعتدل في وقفته فجأة ونفض التراب عن أصابعه.

أزالوا حروف اسم الكنيسة، ما المشكلة إذن؟ ربما يحولون الاسم إلى (كنيسة فليب ويلسون) مثلاً أو أي اسم أخر.

لكن ما السبب؟ ماذا حدث؟

تخلص من أفكاره سريعًا ومضى عبر الباب الداخلي. وجد نفسه واقفًا في مواجهة قاعته الداخلية، فشعر بالخوف يستولي على قلبه ويعتصره. تسارعت أنفاسه وسمعها عالية في ظلام المكان المحيط.

كانت المساحة الواقعة خلف منبر القس يشغلها (بورتريه) هائل للمسيح، وقال (بيرت) لنفسه: إن لم يكن من شيء في هذه البلدة يخيف (فيكي) حتى الجنون، كان هذا ليدفعها إليه.

كان المسيح يبتسم. عيناه واسعتين متفحصتين، ذكرت (بيرت) بالممثل (لون شاني) في فيلم (شبح الأوبرا).

في كل من الحدقتين السوداوين الواسعتين شخص ما –لعله أحد المخطئين– يغرق في بحيرة من النار.

لكن أغرب شيء هو أن للمسيح شعر أخضر، ولمّا تبينه أدرك أنه ذاته كتلة هائجة من الذرة الصيفية. كانت اللوحة مرسومة بيد خرقاء

لكن ذات أثر قوي. بدت وكأنها كادر من قصة مصورة رسمها طفل موهوب.. يسوع العهد القديم.

وعند قاعدة اللوحة كان هناك آلة أرغن، لكن (بيرت) لم يتمكن في البداية من تبين ما الخطأ بها. سار إلى الجانب الأيسر من الممشى ورأى أن مفاتيح الآلة الموسيقية قد انخلعت من مواضعها.. والأنابيب العالية التي تسري فيها موسيقى العازف مليئة بقش الذرة. وعلى الأرغن كانت هناك كلمات منقوشة بحرص:

«لا تصنعوا الموسيقى إلا بصوت الإنسان.. هكذا قال الرب»

(فيكي) محقة.. ثمة شيء رهيب هنا.

احتار للحظة هل يعود إلى (فيكي) دون المزيد من الاستكشاف ويلج إلى السيارة ويغادر البلدة في أسرع وقت ممكن ولا يتفحص مبنى البلدية. لكنه واجه نفسه بالحقيقة..

قال لنفسه: بصراحة أنت لا تريد الاعتراف بالخطأ أمامها وأنها على حق منذ البداية.

سيعود بعد دقيقة.

سار إلى منبر القس متفكرًا.. لابد أن الناس يمرون بـ (جاتلين) طوال الوقت. لابد أن هناك بلدات مجاورة سكانها لهم أصدقاء وأقرباء هنا. كذلك لابد أن تحضر شركة الكهرباء لتحصيل الفواتير!

وجد كشاف الشارع مطفئاً.. لابد أنهم يعرفون أن الكهرباء مقطوعة منذ أثني عشر عاماً.

الاستنتاج: ما يجري في (جاتلين) الآن مستحيل.

لكن هذا الخوف.. هذا الخوف..

صعد درجات المنبر الأربع وطل على المقاعد الخشبية الخالية التي تلمع وسط الظلال.

أحس بهاتين العينين الشريرتين الغريبتين تحدقان في ظهره.

كان هناك كتابٌ مقدسٌ كبيرٌ على منضدة القس الصغيرة، مفتوحًا على الإصحاح ثمانية وثلاثين في سفر أيوب.

نظر (بيرت) إليه ثم بدأ يقرأ:

<< "فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال ٢ من هذا الذي يظلم القضاء بكلام بلا معرفة. (...) ٤ أين كنت حين أسست الأرض. أخبر إن كان عندك فهم "[3].. الرب. هو الذي يمشي خلف الصفوف. يقول لك إن كان عندك فهم فمر بحقل الذرة >>

---

[3] من الإصحاح ٣٨ سفر أيوب، الكتاب المقدس. وما يلي من (الرب.. وحتى: بحقل الذرة) هو محض خيال المؤلف، وهي على الأرجح كلمة دارت في ذهن (بيرت) تفسيرًا لقراءته لهذه الآيات. (المترجم)

قلب في صفحات الكتاب المقدس، فسمعها تهمس في السكون..

صوت لا يصدر إلا من الأشباح، إذا كان هناك ما يسمى بالأشباح.

وفي بلد مثل هذا يمكنك الاعتقاد بسهولة في وجودها.

كان على وشك النزول عن المنبر، حين رأى كتابًا على رف آخر فأخرجه من موضعه، معتقدًا أنه سجل الكنيسة بمناسبات العرس والجنازات، وما إلى ذلك.

فتح الكتاب على الصفحة الأولى.

هذا خط طفل.

في مواضع منه كانت ممحاة الحبر مستخدمة بحرص..

وبينما لم تكن في الكتابة أخطاء إملائية، كانت الحروف كبيرة طفولية..

مرسومة وليست مكتوبة.

وفي الصف الأول قرأ:

عاموس ديجان (ريتشارد)
ولد ٤ سبتمبر ١٩٤٥. ٤ سبتمبر ١٩٦٤.

إسحاق رينفرو (ويليام)

ولد ١٩ سبتمبر ١٩٤٥. ١٩ سبتمبر ١٩٦٤.

صفنيا كيرك (جورج)

ولد ١٤ أكتوبر ١٩٤٥. ١٤ أكتوبر ١٩٦٤.

مريم ويلز (روبرتا)

ولدت ١٢ نوفمبر ١٩٤٥. ١٢ نوفمبر ١٩٦٤.

يمن هوليس (ادوارد)

ولد ٥ يناير ١٩٤٦. ٥ يناير ١٩٦٥.

وهو مقطب الجبين أخذ (بيرت) يقلب في الصفحات.

وبعد أن فض منها ثلاثة أرباعها، انتهت الصفحات ذات العمودين فجأة، ليجد صفحات بعمودٍ واحد:

راشيل ستيجمان (دونا)، ٢١ يونيو ١٩٥٧. ٢١ يونيو ١٩٧٦.

موسى ريتشاردسون (هنري)، ولد ٢٩ يوليو ١٩٥٧

ملاخي بوردمان (كريج)، ولد ١٥ أغسطس ١٩٥٧

كان أخر اسم في الكتاب هو (راعوث كلاوسون) (ساندرا)، ولدت ٣٠ إبريل ١٩٦١.

نظر (بيرت) إلى الرف الذي وجد فيه الكتاب فوجد كتابين غيره.

كان الأول فيه باقي السجل.. العمود الوحيد في الصفحة يتعقب المواليد وأسمائهم. في أول سبتمبر ١٩٦٤ وجد (أيوب جيلمان) (كلايتون)، ولد ٦ سبتمبر، والاسم التالي هو (حواء توبين)، ولدت ١٦ يونيو ١٩٦٥. ولا اسم ثانٍ لها بين قوسين.

الكتاب الثالث خالي.

أخذ (بيرت) يفكر وهو واقف خلف المنبر.

شيء ما حدث عام ١٩٦٤.

شيء له علاقة بديانة غريبة، وبالذرة..

والأطفال.

<< ندعوك أن تُنعِم بمباركتك على المحصول يا رب. آمين >>

السكين مرفوع عاليًا للتضحية بالكبش..

لكن هل هو كبش بحق؟

لعله الجنون اجتاحهم جميعاً. وحدهم..

وحدهم خارج العالم تفصلهم عنه مئات الأميال المربعة من الذرة الهامسة مع الرياح.

وحدهم تحت سبعين مليون فدان من السماء الزرقاء.

وحدهم تحت عين الرب الحارسة.. رب الذرة..

(هو الذي يمشي خلف الصفوف)

لكن (بيرت) أحس برعشة تزحف على جسده.

(فيكي)..

تعالي أخبرك بحكاية.

هي عن (عاموس ديجان) الذي ولد باسم (ريتشارد ديجان) يوم ٤ سبتمبر ١٩٤٥. اتخذ اسم (عاموس) سنة ١٩٦٤..

اسم جميل من العهد القديم، (عاموس).. أحد الأنبياء. وما حدث يا (فيكي) -ولا تضحكي من فضلك- أن (ديك ديجان) وأصحابه.. (بيلي رينفرو) و(جورج كيرك) و(روبرتا ويلز)، و(إيدي هوليس) وآخرين - اتخذوا لهم دينًا غريبًا وقتلوا آباءهم.

جميعهم!!

أليس هذا أمرًا مدهشًا؟

أطلقوا عليهم الرصاص في الفراش، وطعنوهم في الحمام، وسمموا لهم العشاء، وشنقوهم، ونزعوا منهم الأحشاء.

لماذا؟

الذرة.

ربما كانت تحتضر.

ربما حسبوا أنها تذبل بسبب الخطيئة.

لم يقدموا ما يكفي من الأضاحي. لابد أنهم قدموها في الذرة، بين الصفوف.

وبطريقة ما يا (فيكي) – وأنا واثق من هذا– قرروا أن سن التاسعة عشر هو أكبر سن يمكن أن يبلغه أحدهم.

ريتشارد (عاموس ديجان).. بطل قصتنا الصغيرة هذه، بلغ التاسعة عشر في ٤ سبتمبر ١٩٦٤ .. التاريخ المذكور في الكتاب.

أعتقد أنهم قتلوه. ضحوا به في الذرة. أليست قصة حمقاء؟

لكن تعالي ننظر إلى (راشيل ستيجمان)، التي كانت (دونا ستيجمان) حتى عام ١٩٦٤. بلغت التاسعة عشر يوم ٢١ يونيو، منذ شهر مضى. ولد (موسى ريتشاردسون) يوم ٢٩ يوليو..

بعد ثلاثة أيام سيبلغ التاسعة عشر. هل تعرفين ماذا سيحدث لـ (موسى) في التاسع والعشرين من الشهر؟

تعالي نخمن.

لعق (بيرت) شفتيه وأحس بها جافة.

ثم هناك شيء آخر يا "فيكي". انظري..

معنا (أيوب جيلمان) (كلايتون) المولود يوم ٦ سبتمبر ١٩٦٤.

لا توجد مواليد أخرى حتى ١٦ يونيو ١٩٦٥. هناك فجوة من عشرة أشهر.

أتعرفين ماذا جرى؟.. قتلوا جميع الآباء، حتى أي أم حامل، هذا ما حدث.

وحملت إحداهن في شهر أكتوبر ١٩٦٤ وولدت حواء.

الأم في السادسة عشر أو السابعة عشر ولدت حواء.

المرأة الأولى.

قلب في الكتاب بسرعة محمومة ليجد (حواء تومبين). تحتها كان المكتوب: (آدم جرينلو)، ولد ١١ يوليو ١٩٦٥.

لا يزيد عمريهما عن أحد عشر عامًا..

قالها لنفسه وهو يرتجف. وربما هم هناك بالخارج، في مكان ما.

لكن كيف أمكن الإبقاء على هذا الأمر سراً؟

كيف سيستمر؟

كيف ما لم يوافق الرب الذي يعبدونه ؟

قال (بيرت) لنفسه في السكون: "بحق الرب"..

وكانت تلك اللحظة حين سمع بوق سيارته ينطلق في سكون ساعة العصر.. بوق طويل متصل.

قفز (بيرت) من المنبر وجرى إلى ممشى الكنيسة.

فتح الباب الخارجي ليدخل نور الشمس. كانت (فيكي) جالسة معتدلة خلف مقعد القيادة ويديها على بوق السيارة، ورأسها يدور بجنون إلى اليمين واليسار. ومن حولها أطفال يتحلقون!

بعضهم يضحك بمرح، وبعضهم يحمل السكاكين والبلطات والأنابيب والأحجار والمطارق! وفتاة ربما لا يتعدى سنها الثامنة ذات شعر أشقر طويل جميل تحمل أنبوب معقوف. أسلحة ريفية. ليس بينها مسدس. أحس (بيرت) برغبة جامحة في الصراخ: *من منكم آدم وحواء؟ من منكن الأمهات؟ من منكن البنات؟ الآباء؟ الأبناء؟ من؟*

من؟.....

<< أخبر إن كان عندك فهم[4] >>

جاءوا من الشوارع الجانبية، ومن ساحة البلدة، ومن البوابة المكبلة بالسلاسل الواقع خلفها فناء المدرسة.

نظر بعضهم بلا مبالاة إلى (بيرت) الواقف بجمود على درجات الكنيسة، وبعضهم لكز رفيقه وأشار إليه وابتسم ابتسامة الأطفال العذبة..

---

[4] وجبت الاستعانة بنص الآية ثانية بعد أن كررها الكاتب حرفيًا في هذا الموضع، فلا مجال لترجمتها؛ لأنها تداعت إلى ذهن (بيرت) بعد أن قرأها في الكتاب المقدس منذ قليل. (المترجم)

كانت الفتيات يرتدين قبعات نسائية صوفية بنية قديمة تحجب عنهن الشمس. والأولاد مثل القساوسة يرتدون السواد وقبعات دائرية مسطحة!

مضوا عبر ساحة البلدة إلى السيارة، عبر مماشي البيوت الأمامية، وبعضهم من الأفنية الأمامية لما كانت كنيسة (فضل الرب المعمدانية) حتى عام ١٩٦٤. واحد أو اثنان منهم كادوا يلمسونه.

هتف (بيرت): "البندقية يا (فيكي).. البندقية!"

لكنها تجمدت من الذعر، وتبين هذا من حيث يقف على الدرجات. ارتاب في أنها يمكنها حتى سماعه من نوافذ السيارة المغلقة.

تحلقوا حول السيارة والفؤوس والبلطات والأنابيب ترتفع وتهوي عليها. يا ربي.. هل هذا حقيقي؟ سقط عن السيارة قطعة إكسسوار من الكروم. طار شعار ماركة السيارة عنها. أخذت السكاكين تنحت في المعدن والإطارات. استمر البوق في النفير. بدأت السيارة تتفكك تحت وطأة الهجوم.. ثم انكسر الزجاج الأمامي إلى الداخل، ورأى (فيكي) ثانية وهي مكومة في الداخل ويدها اليمنى على البوق، واليسرى مرفوعة تحمي بها وجهها.

امتدت إلى الداخل أيدي صغيرة متلهفة، وعبثت بأزرار فتح الأبواب. ضربت الأيدي بقوة. تقطع نفير البوق ثم كف تماماً.

انفتح باب السيارة بعد أن تحطم. أخذوا يحاولون سحبها إلى الخارج، لكن يديها تمسكتا بعجلة القيادة بقوة. ثم مال أحدهم إلى الداخل وفي يده سكين.. فتخلص (بيرت) من الشلل الذي اعتراه وهبط الدرجات وهو يكاد يسقط على وجهه، ثم جرى على الممشى المكون من الحصى إليهم.

كان أحدهم ولدًا في السادسة عشر من عمره له شعر أحمر طويل ينتشر على وجهه من تحت قبعته، فالتفت إليه وطار من يده شيء يلمع. تراجعت ذراع (بيرت) اليسرى إلى الخلف وللحظة واتته فكرة غريبة بأنه تعرض للكمة. ثم جاء الألم.. حاد ومفاجئ حتى إن العالم صار رمادياً.

تفحص ذراعه بعجب غريب أحمق. سكين صغير ينمو منها مثل ورم غريب. كان كم قميصه الفاخر قد اصطبغ بالاحمرار. نظر إلى ذراعه لفترة طويلة وكأنها الأبد، محاولاً فهم كيف نمت لذراعه سكين كهذه.. كيف هذا؟

وحين رفع عينيه ثانية كان الفتى ذي الشعر الأحمر قريبًا منه. كان يبتسم، وبثقة.

قال (بيرت):

- "أنت.. يا ابن الـ ....".

وكان صوته مصدومًا متألماً.

قال الفتى ذو الشعر الأحمر وهو يمد يده بالسكين إلى عين (بيرت):

- "جهز روحك للرب، فسوف تقف أمام عرشه بعد قليل".

تراجع (بيرت) إلى الخلف، وسحب السكين من ذراعه ليطعن به الفتى ذو الشعر الأحمر في رقبته. تدفق الدم فورًا بكميات هائلة. تساقط بعضه على (بيرت)، وبدأ الفتى ذو الشعر الأحمر يشهق ويسير في دائرة واسعة. حاول الإمساك بالسكين لسحبها، ولم يقدر.

راقبه (بيرت) بفم مفتوح. لا يمكن أن يكون هذا واقعاً، إنه حلم. أخذ الفتى ذو الشعر الأحمر يسير في دوائر. أصبح صوته هو الوحيد في ساعة العصر هذه. راقبه الآخرون في ذهول.

هذا الجزء ليس في النص.. كذا قال (بيرت) لنفسه. (فيكي) وأنا.. كنا في النص. والولد الذي كان في حقل الذرة محاولاً الهروب. لكن ليس في النص أن يموت أحدهم. نظر إليهم في جنون والصراخ يكاد يفر من شفتيه.

هل أعجبكم ما جرى؟ هه؟

صدر عن الفتى ذي الشعر الأحمر صوت حشرجة أخيرة ثم خر على ركبتيه. حدق في (بيرت) للحظة ثم هوت يداه إلى جانبيه بعيدًا عن السكين، وسقط على وجهه.

صوت تنهيدة جماعية صدرت عن الأطفال الملتفين حول السيارة. ثم حدقوا في (بيرت). نظر إليهم في دهشة.. وكانت تلك اللحظة هي حين أدرك أن (فيكي) اختفت.

سألهم:

- "أين هي؟ إلى أين أخذتموها؟"

رفع أحد الصبية سكين صيد ملوث بالدماء إلى رقبته وكأنه يمثل عملية ذبح. ابتسم. كانت تلك هي الإجابة الوحيدة.

ومن موضع ما في الخلف سمع صوت فتى أكبر سناً، ناعماً.. يقول:

- "أحضروه".

بدأ الصبية يسيرون تجاهه. تراجع (بيرت). أخذوا يسرعون. تراجع (بيرت) بسرعة أكبر. البندقية.. البندقية الملعونة! بعيدة عن متناول اليد. الشمس تلقي ظلالهم الطويلة على عشب الكنيسة الأخضر.. وصل إلى الممشى الجانبي. التفت وجرى.

- *"اقتلوه!"*

كذا صاح أحدهم بصوت كالزنير، ثم انطلقوا خلفه.

جرى لكن بعيون لا ترى. مال إلى مبنى البلدية.. لن يجد مساعدة هنا، سيحاصرونه كالفأر في المصيدة.. جرى إلى الشارع الرئيسي الذي

انفتح وصار طريقًا سريعًا ثانية على مسافة بلوكين. لو أنه لم ينصت إلى (فيكي)، كانا ليصبحا على الطريق.

حذائه يطرق الإسفلت. أمامه عدة مباني تجارية منها متجر للآيس كريم، ودار سينما (بيجو). عليها لافتة فيلم الموسم بكلمات يغيب عنها بعض الحروف (*كليوباترا – إليـ بث تـ يلـ ر*). بعدها تقاطع فيه محطة الوقود التي تنتهي عندها البلدة. وبعد هذا الذرة.. الذرة تحيط الطريق تضيق عليه.. مد الذرة الأخضر.

جرى (بيرت).

مبهور الأنفاس وجرح السكين في ذراعه يؤلمه بشدة.

جرى وخلفه أثر من الدماء. وهو يجري أخرج منديله القماشي من جيبه الخلفي وحشره في قميصه.

جرى.. حذائه يضرب الأسمنت المشقق على الرصيف، أنفاسه تخرج منه تكاد تقطع رئتيه والحرارة تزداد. بدأ ذراعه يؤلمه ألمًا صادقًا لا وهم فيه.

حاول جزء من عقله أن يسأله إذا كان سيجري طوال الطريق إلى البلدة التالية.. هل يمكنه جري عشرين ميلاً؟

جرى وخلفه سمعهم..

أولاد أصغر منه بخمسة عشر عامًا وسرعتهم أكبر منه يقتربون. كانت أقدامهم تضرب الرصيف بقوة. وقد أخذوا يصيحون ويهتفون ويتكلمون فيما بينهم.

استمتعوا بالمطاردة أكثر من استمتاع الصبية بانطلاق إنذار الحريق.. هكذا قال (بيرت) لنفسه. سيتحدثون عن هذا اليوم لسنوات.

جرى (بيرت).

عبر محطة الوقود التي تنتهي عندها البلدة. أنفاسه قصيرة متقطعة وأزيز غريب في رئتيه. الرصيف يجري من تحت قدميه. لم يعد أمامه غير شيء واحد يفعله، فرصة واحدة لهزيمتهم والنجاة بحياته. اختفت البيوت. راحت البلدة من عينيه.

انبعثت الذرة في موجة خضراء ناعمة تحف بالطريق. الأوراق الخضراء المشرعة كالسيوف تهمس بنعومة ورفق. سيجد الأرض عميقة غائرة هناك.. عميقة وباردة.. صفوف مظللة من ذرة تناهز الرجال طولاً.

جرى إلى جوار لافتة تقول: <<أنت الآن تغادر (جاتلين).. ألطف بلدة صغيرة في (نبراسكا) – أو في أي مكان آخر، زرنا وقتما تشاء>> !

سأفعل هذا..

سأفعل هذا بالتأكيد.

جرى وعبر اللافتة ثم مال إلى اليسار وعبر الطريق، ثم تخلص من حذائه بعد أن ركل الفردتين.

ثم جرى إلى الذرة فأحاطته وحاصرته وأغلقت صفوفها من خلفه ومن فوقه مثل موجات بحر أخضر.. احتضنته.

خبأته.

أحس بارتياح مفاجئ غير متوقع يعتريه، وفي نفس اللحظة التالية داهمته النسمات الجديدة.. رئتاه اللتان كانتا محتقنتين، انفك عنهما الضيق وازداد الهواء الداخل إليهما.

جرى بطول الصف الأول الذي دخله ورأسه منحني إلى الأمام ومنكبيه العريضين يمسان الأوراق فتصاب بالرعشات.

على مسافة عشرين ياردة دار إلى اليمين وسار موازيًا للطريق ثانية، وانطلق إلى الأمام برأسه المنخفض حتى لا يرون شعره الأسود يتقافز لأعلى وسط شعر الذرة الأصفر. تراجع عائدًا تجاه الطريق للحظات، ثم عبر صفوف أخرى، ثم عاد ليقترب من الطريق وهو يقفز بشكل عشوائي من صف إلى آخر، وهو يتوغل إلى قلب الذرة بثبات.

أخيرًا انهار على ركبتيه ورمى بجبينه على الأرض. سمع صوت أنفاسه وكانت الفكرة التي أخذت تتكرر في رأسه هي" *حمدًا لله أنني كففت عن التدخين. حمدًا لله أنني كففت عن التدخين. حمدًا لله أنني.."* ..

ثم سمعهم وصخبهم يعلو وهم يصيحون أحدهم على الآخر، وفي بعض الحالات يتصادمون (*انتبه. هذا صفّي!*)، فجمد الصوت قلبه.

كانوا بعيدين إلى يساره وبدوا له غير منظمين.

اخرج منديله من قميصه وطواه ثم أعاده إلى مكانه في الجرح.

رأى النزيف وقد كف، على الرغم من المجهود الذي يبذله.

استرخى للحظات ثم أحس فجأة بالتحسن.. التحسن بدنياً. أفضل مما أحس بجسده منذ سنوات، فيما عدا الألم النابض في ذراعه. أحس بأنه قضي فترة في التمرين الرياضي، وبأنه مشغول لأول مرة منذ سنتين بمشكلة مختلفة (مهما بلغت من الجنون) بعد فترة قضاها في مشكلات الزواج المحطم.

لم يعجبه إحساسه هذا، كذا قال لنفسه. إنه في خطر مهلك على حياته، وزوجته بعيدة. يمكن أن تكون قد ماتت. حاول استرجاع وجه (فيكي) في ذاكرته وتوجيه إحساس طيب تجاه ذكراها، لكن وجهها لم يحضره. ما بلغه كان وجه الولد ذو الشعر الأحمر والسكين في رقبته.

أدرك أن رحيق الذرة يملأ أنفه ويحيطه. كانت الرياح فوق الصفوف تهمس وكأنها تتكلم.. مريحة للنفس. أيا كان ما فعل باسم هذه الذرة، فهي الآن حاميته.

لكنهم يقتربون.

جرى برأسه منخفض، وهرول عبر الصف الذي يشغله، ثم عبره وعاد إلى نفس الصف ثانية، ثم عبر عدة صفوف. حاول أن يبقي الأصوات إلى يساره دوماً، لكن مع مرور فترة الأصيل صار هذا صعباً. بدأت الأصوات تخفت وتبهت وحفيف الذرة يكاد يمنعها تمامًا أحياناً. يجري وينصت ويجري ثانية، والأرض من تحته دسلبة، وقدميه المغلفتان بالجورب لا تتركا أثرًا على الأرض.

حين توقف أخيرًا رأى الشمس معلقة فوق الحقل إلى يمينه حمراء محتقنة، وحين نظر إلى ساعته ورأى أنها السابعة والربع. لطخت الشمس قمم الذرة العليا باللون الأحمر الذهبي، لكن الظلال هنا داكنة وعميقة.

أدار رأسه لينصت. ومع مقدم الغروب ماتت الرياح وكفت عن الذرة الساكنة الثابتة، التي انتشر رحيقها ومعه رائحة النمو والخصوبة في الهواء الدافئ. إذا كانوا ما زالوا في الذرة فهم إما بعيدًا أو جلسوا على الأرض ينصتون. لكن (بيرت) لم ير أن الأطفال، مهما بلغ بهم الجنون، يمكنهم البقاء ساكنين طوال هذه الفترة.

لابد أن يرتكبوا الجدير بهم كأطفال.. مهما كانت النتائج والتداعيات عليهم.. تخلوا عن المطاردة وعادوا إلى البيت.

ولى وجهه إلى الشمس الغاربة التي غرقت بين السحب المنتشرة على صفحة الأفق، وشرع يسير. إذا سار في خط متقاطع مع الصفوف

والشمس الغاربة أمامه طوال الطريق، فسوف يبلغ الطريق السريع رقم ١٧ عاجلاً أو آجلاً.

تحول الألم في ذراعه إلى نبضة متكررة تكاد تكون باعثة على السرور، وما زال إحساسه الطيب لم يفارقه.

قرر أنه طالما هو هنا، فسوف يترك الإحساس الطيب ينتشر داخله بلا إحساس بالذنب. الذنب سيعود حين يبلغ السلطات ويحكي عما جرى في (جاتلين). لكن هذا ليس وقته.

تقدم في قلب الذرة، مفكرًا في أنه لم يحس يومًا بكل هذا الوعي والانتباه. بعد خمسة عشر دقيقة تحولت الشمس إلى نصف كرة تطل من طرف الأفق، فتوقف ثانية، ووعيه الجديد يتحول إلى نسق لم يعجبه. إحساس مخيف قليلاً.. قليلاً.. أجل.

أحنى رأسه وهمست الذرة.

أدرك الخوف (بيرت) منذ فترة لكنه ربطه بشيء آخر. الرياح ما زالت ساكنة. كيف هذا؟

نظر حوله في حذر وهو يتوقع رؤية وجوه الصبية المبتسمة في معاطفهم السوداء وهم يتسللون إليه من بين الصفوف، وسكاكينهم في أيديهم. لم يقع أي من هذا.

لا شيء غير ذلك الصوت الهامس، بعيدًا إلى اليسار.

شرع يسير في ذلك الاتجاه وقد تخلى عن التقدم منحنيًا وسط الذرة. الصف يأخذه إلى الاتجاه الذي يريده بشكل طبيعي. الصف ينتهي أمامه. ينتهي؟ لا.. بل يفضي إلى مساحة فارغة. والصوت الهامس هناك.

توقف.. اعتراه الخوف فجأة.

رائحة الذرة قوية نفاذة. الصفوف المتمسكة بدفء الشمس.. أدرك فجأة أن العرق يتصبب منه، وأنه مغطى بالقش وشعرات صفراء من الذرة، وأن الحشرات لابد أن تسير على جسده.. لكنه لم تفعل.

وقف جامدًا ثابتاً، محدقًا في الموضع الذي تنفتح فيه الذرة مفضية إلى حلقة واسعة من الأرض الطينية الجرداء.

لم يحس بالناموس أو الحشرات الطائرة، ولا صراصير الليل. لم ير عصفورًا واحداً. كم هذا غريب.. حقل ذرة بلا عصفور واحد؟

وعلى أخر نثرات النهار مسح بعينيه صف الذرة الواقع إلى يساره. ورأى أن كل ورقة من الذرة كاملة تامة سليمة، وهو أمر مستحيل. ولا بقعة ذبول صفراء، ولا أوراق متآكلة، ولا بيضات للحشرات. اتسعت عيناه.

يا ربي.. لا توجد أية حشائش!

ولا نصل عشب واحد. على مسافات متساوية تبلغ قدم ونصف القدم ترتفع صفوف الذرة من الأرض.

ولا عشب ولا نباتات طفيلية ولا أي شيء.

حدق (بيرت) لأعلى، وعيناه تتسعان. كان نور الغروب يتلاشى. السحب المارة تتجمع عند حد الأفق البعيد وتحتها نور ذهبي يتحول إلى الاحمرار. سيسود الظلام قريباً.

حان وقت السير إلى الحلقة الفارغة من الذرة ورؤية ما هناك.. ألم يكن هذا هو المخطط منذ البداية؟ كل هذا الوقت وهو يظن أنه يسير إلى الطريق السريع، ألم يكن طوال الوقت يسحب من يده إلى هنا؟

والرهبة تملأ أحشائه تقدم عبر الصف ووقف على مشارف الحلقة. كان بها ما يكفي من الضوء لرؤية ما يشغلها. لم يتمكن من الصراخ. لم يجد الهواء الكافي للصرخة في رئتيه. ترنح على قدمين مثل عودي خشب قديم، وعيناه تجحظان في وجهه الذي يتصبب عرقاً.

همس:

- *"فيكي.. (فيكي).. يا ربي.."*

كانت مرفوعة على صليب وكأنها نصب تذكاري، وذراعيها عند المعصمين وقدميها وكاحليها، مربوطينَ بسلكٍ شائك.. البياردة منه بسبعين سنتًا من أي متجر في نبراسكا.

وكانت عيناها مخلوعتين من مقلتيهما، والحدقتان ممتلئتين بشعر الذرة الأصفر. فكها مفتوح في صرخة صامتة وفمها ممتلئ بقش الذرة.

وإلى يسارها. هيكل عظمي. كان فكه العاري من اللحم مبتسماً. الحدقتان الخاليتان تحدقان في (بيرت) في هزل، وكأن قس الكنيسة التي كانت تسمى (كنيسة فضل الرب المعمدانية) يقول:

(*ليس من السيئ التضحية بالبشر على أيدي أطفال الشيطان الوثنيين في الذرة.. ليس من السيئ خلع الأعين من الجماجم طبقًا لما قاله النبي الوثني.. ليس من السيئ..*)

وإلى يسار الهيكل العظمي هيكل آخر، والأخير يرتدي زيًا رسميًا أزرق متعفناً. وعلى الجمجمة قبعة تغطي الحدقتين، وعلى طرف القبعة شارة مكتوب عليها: *مأمور الشرطة.*

ثم سمع (بيرت) الصوت.. ليس صوت الأطفال، بل شيء أكبر بكثير.. يتحرك مقتربًا من الحلقة الواسعة بين صفوف الذرة. ليس الأطفال. لا. الأطفال لا يجرؤون على ولوج الذرة ليلاً. هذا مكان مقدس.. مكانه..

<< هو الذي يمشي خلف الصفوف >>

دار (بيرت) على عقبيه ليجري.

اختفى الصف الذي ولج منه إلى الحلقة الواسعة. دنت منه كل الصفوف. كان يقترب وهو يسمعه.. يدفع الذرة أمامه. سمع صوت أنفاسه. اعترته موجة من الرعب المجنون وسيطرت عليه.

إنه يقترب.

الذرة على الجانبين غطاها الظلام فجأة، وكأن ظلاً هائلاً يبسط أسداله عليها.

يقترب..

<< *هو الذي يمشي خلف الصفوف* >>

دخل إلى الحلقة الواسعة.

رأى (بيرت) شيئًا هائلاً يمتد فيناطح السماء، شيئًا أخضر بعيون حمراء رهيبة في حجم كرة القدم.

شيئًا رائحته مثل أوراق الذرة الذابلة في ظلال حظيرة منذ سنوات.

بدأ يصرخ. لكنه لم يصرخ طويلاً.

بعد فترة وجيزة اعتلى السماء قمر حصاد برتقالي متوهج.

* * *

وقف أطفال الذرة في صمت مع منتصف النهار التالي ينظرون إلى الهيكلين العظميين المصلوبين والجثتين الأخريين.

أجساد لم تصبح هياكل عظمية بعد، لكنها ستتحول.. مع الوقت.

وهنا في قلب (نبراسكا) وفي قلب الذرة لا يوجد شيء غير الوقت.

- "انظروا! حضرني حلم ليلة أمس، ونقل الرب لي ما سأقوله".

التفتوا جميعًا إلى (إسحاق) في وجل ورهبة، حتى (ملاخي) انتبه.

كان (إسحاق) في التاسعة من عمره فقط، لكنه هو النبي منذ أخذت الذرة (داود) قبل عام.

كان (داود) في التاسعة عشر من عمره لمّا ولج إلى الذرة في عيد ميلاده، مع بلوغ الغسق أطراف صفوف الذرة الصيفية.

ثم أكمل (إسحاق) كلامه بوجهه الصغير المحمل بالهم تحت قبعته الواسعة:

- "وفي حلمي كان الرب ظلاً يسير خلف الصفوف، وتكلم إليّ كلمات قالها لأخوتنا الأكبر منذ سنوات. إنه غير مسرورا بهذه التضحية".

تنهدوا ونظروا إلى جدران الاخضرار المحيطة.

- "وقال الرب: ألم أمنحكم مكانًا لتقدموا فيه الأضاحي؟ ألم أنعم عليكم؟ لكن ....

هذا الرجل سب ديني ومنهاجي وأتممت التضحية بنفسي وانتزعت القربان بيدي. مثل الرجل الأزرق والقس الزانف الذي هرب منذ أعوام عديدة".

همسوا:

- "الرجل الأزرق.. القس الزانف".

وتبادلوا النظرات في قلق.

- "والآن فإن سن التضحية قد انخفض من التاسعة عشر، ويؤتى الحصاد في عمر الثامنة عشر".

مضى (إسحاق) في كلامه بلا توقف:

- "ولسوف تتكاثر الذرة وتثمر كثيراً، ولتحل نعمتي عليكم وتحيطكم وتحفكم".

كف (إسحاق) عن الكلام.

التفتت العيون إلى (ملاخي) ويوسف.. الوحيدان اللذان بلغا الثامنة عشر بينهم.

كان هناك غيرهم في البلدة بلغوا نفس السن، لعلهم عشرين جميعاً.

انتظروا سماع ما سيقوله (ملاخي)..

(ملاخي) الذي قاد عملية مطاردة (يافث)، المعروف باسم (آهاز) الذي لعنه الرب.

(ملاخي) الذي قطع رقبة (آهاز) وألقى بجسده خارج الذرة حتى لا يلوثها الجسد المدنس.

همس (ملاخي):

- "إنني أطيع كلمة الرب".

تنهدت الذرة في استحسان.

خلال الأسابيع التالية ستصنع الفتيات صلبان من الذرة لتبعد بها الشر.

وفي تلك الليلة سار كل من بلغ عمر الحصاد إلى الذرة وإلى قلب الحلقة الفارغة، ليحصلوا على مباركة (هو) الذي يمشي خلف الصفوف.

قالت له (راعوث) وهي تلوح له بقلب محزون:

- "وداعًا يا (ملاخي)".

كانت بطنها الكبيرة تحمل طفله والدموع تسري صامتة على وجنتيها.

لم يلتفت إليها (ملاخي). مضى بظهر مستقيم.

ابتلعته الذرة.

التفتت (راعوث) عنه وهي ما زالت تبكي. نمت في أحشائها كراهية سرية للذرة، وأحيانًا تحلم بأنها تسير في قلبها وفي كل يد مشعل مع مجيء شهر سبتمبر الجاف، وذبول النبتات وسهولة اشتعالها. لكنها تخشاها أيضاً. فهناك في الظلام يسير شيء ما، وهو يرى كل شيء.. حتى الأسرار في طيات قلوب البشر.

سجى الليل بعد رحيل الغسق.

تهامست الذرة المحيطة ببلدة (جاتلين) وتناقلت أسرارها.

كانت مسرورة راضية.

* * *

القصة الثانية

الرجل ذو السترة السوداء

جن جنون الأستاذ إبليس

أفلتت منه الروح التي حسبها ملكه

جيش فرعون غرق

لا يا مريم لا تبكي

. . .

يا أخوة ويا أخوات لا تبكوا

ستمر أيام حلوة كثيرة

جيش فرعون غرق

لا يا مريم لا تبكي

. . .

بروس سبرنجستين — لا يا مريم لا تبكي

كـــلمة المؤلف:

"كنت أتحدث إلى صديق لي ذات يوم وقال إن جده يعتقد أنه رأى الشيطان في الغابة ذات مرة في بداية القرن العشرين.. وقال الجد إن الشيطان اقترب منه خارجًا من الغابة وكأنه رجل عادي. وأثناء حديث الجد معه أدرك أن للرجل عينين ناريتين، وتنبعث منه رائحة الكبريت. افترض جد صديقي أن الشيطان لن يقتله إذا تظاهر بأنه لا يرى حقيقته وبذل جهده ليجري معه حوارًا عاديًا حتى ابتعد عنه.

قصتي مبعثها حكاية صديقي. لم تكن كتابتها ممتعة، لكنني كتبتها إلى النهاية.

أحيانًا تصرخ فيك القصص حتى تكتبها، فتفعل لمجرد أن تتخلص من إلحاحها.. لهذا أشعر بالدهشة لمّا ربحت جائزة (أو هنري) الأدبية لعام ١٩٩٦"

* * *

أصبحت الآن رجلاً عجوزًا طاعنًا في السن، وما سأحكيه وقع وأنا ما زلت بعد صغيرًا عمري تسعة أعوام.

كنا في عام ١٩١٤.. في الصيف التالي على موت أخي (دان) في الحقل الغربي، وقبل دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى بثلاثة أعوام.

أبدًا لم أخبر أحدًا بما حدث عند تفريعة النهر ذلك اليوم، ولن أتكلم أبداً.. على الأقل ليس بفمي.

قررت أن أكتب ما جرى في هذا الدفتر الذي سأتركه على المائدة إلى جوار سريري. لا يمكنني الكتابة طويلاً؛ لأن يدي ترتجف هذه الأيام وقوتي محدودة، ولا أعتقد أن ما سأكتبه سيستغرق مني طويلاً.

فيما بعد يمكن لأي أحد أن يجد ما كتبته.

هذا ما سيحدث على الأرجح، فمن طبيعة البشر الإطلاع على أي دفتر عليه كلمة "مذكرات" بعد رحيل صاحبه بوقت طويل. إذن.. أجل.. كلماتي ستجد من يقرأها.

السؤال الأهم هو هل سيصدقها قارئها أم لا.

الأغلب أنه لن يصدقها، لكن هذا لا يهم. فأنا لا يهمني سوى الانعتاق مما داخلي.

الكتابة تمنحني الحرية كما تبينت.

لعشرين عامًا كاملة وأنا أكتب عمودًا باسم (قديمًا وبعيداً) لمجلة (كاسل روك كول)، وأعرف أن هكذا تسير الأمور.. أحيانًا يغادرك ما تكتبه إلى الأبد، مثل صورة فوتوغرافية قديمة تتركها في الشمس..

تتلاشى ألوانها ولا يبقى منها غير البياض.

ليتني أصل إلى هذا الشكل من الانعتاق.

حري على كل رجل بلغ التسعين من عمره أن يتجاوز مخاوف الطفولة، لكن مع تزايد عجزي واجتياحه لي مثل موجات تقترب وتقترب من قلعة مبنية على الرمال، يطالعني ذلك الوجه الرهيب أصفى وأصفى بعين الخيال. يكبر مثل نجم مظلم في كوكبة أحلام الطفولة.

ماذا أتيت بالأمس؟ من رأيت في هذه الحجرة من بيت المسنين؟ وماذا قلت لهم وماذا قالوا لي؟ هذه أشياء رحلت وانقضت، لكن وجه الرجل ذو السترة السوداء يزداد صفاءً ووضوحًا واقتراباً، وأذكر كل كلمة قالها، ولا أريد التفكير فيه لكنني غير قادر على المقاومة..

أحيانًا في الليل يخفق قلبي العجوز بقوة حتى إنني أحس به يكاد يمزق صدري ويخرج منه. وهكذا ها أنا ذا أخلع غطاء القلم وأجبر يدي المرتجفة العجوز على كتابة هذه الحكاية الغريبة في دفتر مذكرات إحدى بنات أحفادي..

لا يمكنني تذكر اسمها قطعاً، على الأقل ليس الآن، لكنني أعرف أن اسمها يبدأ بحرف (س).. ومنحتني إياه كهدية في الكريسماس الماضي، ولم أكتب فيه كلمة إلى الآن.

والآن سأكتب..

سأكتب قصة مقابلتي للرجل ذو السترة السوداء على ضفاف نهر (كاسل) ذات عصر صيفي في سنة ١٩١٤.

* * *

كانت بلدة (موتون) عالمًا مختلفًا في تلك الأيام.. أكثر اختلافًا مما يمكنني الذكر. كانت عالمًا بلا طائرات تحلق في السماء.. عالم بلا سيارات ولا شاحنات.. عالم سماواته لا تقطعها أسلاك الهاتف والكهرباء من فوق الرؤوس.

لم يكن في البلدة طريقًا مرصوفًا واحداً، وكانت منطقة المرافق تقتصر على متجر (كورسون) للبقالة والخردوات، بخلاف كنيسة عند ناصية شارع (كريست)، ومدرسة، وقاعة مجلس البلدة، ومطعم (هاري) على مسافة نصف ميل بعدها، وكانت أمي تطلق عليه بازدراء بالغ (بيت الخمور).

لكن الاختلاف الأهم هو طريقة معيشة الناس وقتها..

كم كانوا منعزلين عن بعضهم البعض.

لست واثقا أن من ولد منكم في منتصف القرن العشرين يمكنه إدراك ما أقصد، وإن كان بعض هؤلاء سيقولون إن هذا ممكناً؛ ليجاملوا العجائز من أمثالي.

لم تكن هناك هواتف في غرب ولاية (ماين) بأكملها. ولم يتم تركيب الهاتف الأول في المنطقة إلا بعد خمس سنوات مما حدث، وحين أصبح لدينا هاتف في بيتنا كنت قد بلغت التاسعة عشر والتحقت بجامعة (ماين) في (أورونو).

لكن هذا ليس سوى قشور لما أقصد. لم يكن هناك طبيب أقرب من (كاسكو)، ولا أكثر من عشرة بيوت في المنطقة المسماة بـ (البلدة).. لم يكن لنا جيران، ولا أعرف حتى إن كنت أدرك وقتها معنى الكلمة، وإن كنت أعرف الفعل (جاور)، والذي يصف أشياء أخرى بخلاف الجيران، وكانت الحقول المفتوحة هي القاعدة وليست الاستثناء. وخارج نطاق بيوت البلدة كانت المزارع..

الواحدة بعيدة منفصلة عن الأخرى، ومن شهر ديسمبر وحتى منتصف شهر مارس كنا نجلس نقضي أوقاتنا مع المدافئ التي نطلق عليها (عائلة).

كنا نجلس القرفصاء وننصت للرياح في المدخنة ونتمنى ألا يمرض أحدنا أو يكسر ساقه أو تراوده أفكار شريرة، مثل ذلك المزارع من (كاسل روك) الذي قطع زوجته وأطفاله إربًا منذ ثلاثة فصول شتاء ثم قال في المحكمة إن الأشباح حملته على فعلته تلك.

في تلك الأيام قبل الحرب العظمى كانت معظم (موتون) مجرد غابات ومستنقعات، ومواضع مظلمة واسعة عامرة بالناموس والحشرات، والثعابين والأسرار.

في تلك الأيام كانت الأشباح في كل مكان.

ذلك الشيء الذي سأحكيه وقع يوم السبت.

كان أبي قد منحني قائمة بالواجبات التي سأؤديها، ومنها ما كانت تخص (دان) لو كان ما زال حياً. كان أخي الوحيد، ومات بعد أن قرصته نحلة. مر عام وما زالت أمي لا تقبل موته. تقول إن السبب كان شيئًا آخر، لابد أنه شيء آخر، ولا يمكن أن يموت أحد بسبب نحلة.

وحين حاولت (ماما سويت) أكبر سيدات جماعة الكنيسة أن تخبرها على عشاء الكنيسة في الشتاء الماضي أن نفس الحادث وقع لعمها سنة ١٨٧٣، صفقت أمي أذنيها بيديها ونهضت وابتعدت عن قبو الكنيسة. لم تعد إليه منذ ذلك الحين ولم يتمكن أبي من قول أي شيء ليقنعها بالعدول عن رأيها.

ادّعت أنها لن تذهب إلى الكنيسة ثانية، وأنها إذا رأت (هيلين روبيشود) ثانية (وهو اسم (ماما سويت) الحقيقي)، فسوف تخرج عينيها من مقلتيهما.

قالت إنها لن تتمكن من منع نفسها.

في ذلك اليوم طالبني أبي بأن أقطع الحطب من أجل إشعال فرن الطهي، وأن أجمع العشب لطهي الفاصوليا، وأن أخرج القش من الحظيرة، وأحضر دلوين من الماء وأضعهما في المطبخ، وأقشر الطلاء عن السقف بنفسي؛ لأن عليه الذهاب إلى (بيل إيفرشام) ليكلمه بشأن البقرات.

قلت إنني لا أمانع في العمل وحدي، وابتسم أبي وكأن هذا لم يدهشه كثيراً.

منحني صنارة صيد من خشب البامبو في الأسبوع الماضي، ليس كهدية لعيد ميلادي أو ما شابه، بل لأنه يحب منحي بعض الأشياء أحياناً.. وكنت في شوق شديد لتجربتها في نهر (كاسل)، وهو أفضل مكان لصيد سمك التروت عرفته إلى الآن.

قال لي:

ـ "لكن لا تبتعد كثيرًا في الغابة. ولا تتجاوز التفريعة"..

- "لن أفعل يا سيدي".

- "عدني".

- "أعدك يا سيدي".

- "والآن لتعد أمك".

كنا واقفين عند الباب الخلفي.. كنت في طريقي إلى البيت ومعي دلوي الماء حين أوقفني أبي.

ثم التفت لأواجه أمي الواقفة عند مائدة المطبخ ونور الشمس الصباحية القوي يغمرها من وراء النافذة ذات الضلفتين، وينير معها حوض الماء. كانت هناك خصلة نافرة من شعرها مستقرة لصق جبينها وتلامس حاجبها.. أترون كم أذكر ذلك اليوم جيداً؟

النور الباهر يحول تلك الخصلة الصغيرة إلى جدائل من ذهب ويحملني على الرغبة في أن أجري إليها وأحيطها بذراعيّ.

في تلك اللحظة رأيتها كامرأة، رأيتها كما كان يراها أبي. كانت ترتدي ثوبًا منزليًا عليه زهرات حمراء صغيرة، وأذكر أن شعرها كان مغزولاً في ضفيرة كبيرة. (كاندي بيل)..

أو كلبنا الأسود الصغير، كان واقفًا منتبهًا إلى جوار قدمها، وهو ينظر إلى الأعلى في انتظار أن يقع منها شيء. وكانت أمي تنظر إليّ.

قلت:

- "أعدك".

ابتسمت..

لكنها كانت ابتسامة قلقة مثل التي تصدر عنها منذ عاد أبي من الحقل الغربي حاملاً (دان) بين ذراعيه. عاد أبي وهو يبكي وصدره مكشوف عار. خلع قميصه وغطى به وجه (دان)، الذي كان منتفخًا متحول الألوان.

يا ولدي!

كذا أخذ يصيح..

انظروا إلى ولدي! يا ربي، انظر إلى ولدي!

أذكر ذلك اليوم وكأنه بالأمس. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي أسمع فيها أبي ينادي اسم الرب في غير الدعاء.

سألتني:

- "بم تعدني يا (جاري)؟"

- "أعدك ألا أتجاوز التفريعة يا سيدتي".

- "لا تتجاوزها؟".

- "أبداً".

نظرت إليّ نظرة حليمة صبور، وكانت صامتة ويديها تعملان على العجين الذي أصبح ناعمًا سخيف المظهر.

- "أعدك ألا أتجاوز التفريعة يا سيدتي".

قالت:

- "شكرًا لك يا (جاري). وحاول أن تذكر أن القواعد اللغوية للحياة كما هي للمدرسة".

- "أجل يا سيدتي".

تبعني (كاندي بيل) وأنا أؤدي واجباتي، وجلس بين قدمي وأنا أتناول غدائي، وطالعني بنفس الانتباه الذي طالع به أمي وهي تخبز الخبز، لكن حين أخرجت صنارتي وسلة السمك القديمة المتهرئة وشرعت في طريقي إلى خارج الباب، توقف وبقي حيث هو وسط التراب إلى جوار السور الأبيض يراقبني.

ناديته لكنه لم يحضر. نبح مرة أو مرتين، وكأنه يقول لي أن أعود، لكن كان هذا كل شيء.

قلت له:

-"لتبق إذن"

وأنا أحاول ألا يبدو علي الاكتراث. وكنت لا أبالي.. بعض الشيء.

كان (كاندي بيل) يخرج للصيد معي دائماً.

خرجت أمي إلى الباب ونظرت إليّ ورفعت يدها اليسرى لتحجب الشمس عن عينيها. ما زلت قادرًا على رؤيتها في ذلك الوضع، وكأنني أنظر إلى صورة فوتوغرافية لشخص ألمت به كارثة بعد التقاطها، أو توفي فجأة. قالت:

- "نفذ أوامر والدك يا (جاري)!"

- "حاضر يا سيدتي.."

لوحت لي محيية، ولوحت لها. ثم درت على عقبي وابتعدت.

كانت الشمس تضرب عنقي مباشرة، قاسية وساخنة طوال أول ربع ميل قطعته، ثم إنني ولجت إلى الغابة حيث غمر الظل الأرض كثيفاً، وكان الطريق باردًا ومشبع برائحة أشجار التنوب، ويمكن سماع الرياح تصفر بين الأشجار.

سرت وصنارتي على كتفي مثل الفتية في ذلك الزمان، ممسكًا سلتي في يدي الأخرى وكأنها حقيبة عرض بائع.

وبعد ميلين تقريبًا في قلب الغابة وعلى طول الطريق الذي لم يكن أكثر من ممشى مزدوج معشوشب يجري وسط الغابة بدأت أسمع صخب مياه نهر (كاسل) الصغير.

فكرت في أسماك التروت ذات الظهر اللامع والبطن البيضاء، وتقافز قلبي بين ضلوعي.

مضى النهر متدفقًا أسفل الجسر الخشبي الصغير وأدت بي ضفافه إلى المياه، وكانت حادة الانحدار.

خضت إلى الأسفل في حذر ممسكًا بأي شيء يصلح لتلتف حوله أصابعي وحفرت بكعب حذائي مواضع للوقوف. نزلت مبتعدًا عن الصيف وإلى قلب فصل الربيع، أو هكذا شعرت.

كانت البرودة تنبعث جميلة رقيقة من المياه، مع رائحة خضراء كالطحالب. وحين بلغت طرف المياه وقفت لبعض الوقت أتنفس عميقًا تلك الرائحة الطحلبية وأراقب حشرات فرس النبي تدور وترفرف.

ثم رأيت في المجرى المائي سمكة تروت تقفز مثل فراشة، ربما بلغ طولها أربع عشرة بوصة.. فتذكرت أنني لم أحضر للاستمتاع بالمناظر الطبيعية.

سرت على طول الضفة متبعًا مجرى المياه وبللت خيط صنارتي لأول مرة حيث ما زلت أرى الجسر خلفي. شد شيء ما طرف صنارتي للأسفل وأكل نصف الدودة مرة أو مرتين، لكنها كانت سمكة ماكرة للغاية فرت من قبضة صياد يبلغ من العمر تسعة أعوام.. أو لعلها لم تكن جائعة بما يكفي لتتخلى عن الحذر.. وهكذا تقدمت إلى الأمام.

توقفت مرتين أو ثلاثا في مواضع مختلفة قبل أن أبلغ المكان الذي يتفرع عنده نهر (كاسل) إلى فرعين..

إلى الجنوب حيث بلدة (كاسل روك)، وإلى الجنوب الشرقي حيث بلدة (كاشواكاماك)، ولدى أحد الفرعين اصطدت أكبر سمكة تروت وقعت عليها عيني قط.. كانت جميلة وتبلغ من الطول تسع عشرة بوصة من قمة رأسها حتى ذيلها، وعرفت مقاسها من المسطرة الصغيرة التي أضعها في سلتي.

كانت سمكة تروت عملاقة، حتى في تلك الأيام العامرة بالخير.

لو كنت قبلتها كهدية ونعمة ليوم واحد من الصيد وعدت أدراجي، ما كنت لأكتب ما أكتبه الآن - وتبين لي الآن أنني سأكتب أكثر مما توقعت أن أكتب - لكنني لم أقنع بها.

بدلاً من هذا عالجت سمكتي كما شرح لي أبي.. نظفتها ووضعتها على العشب الجاف في قاع السلة، ثم وضعت فوقها عشبًا مبتلاً ومضيت في الصيد.

لم أكن في سن التاسعة أعرف أن اصطياد سمكة تروت تبلغ تسع عشرة بوصة هو أمر غير إعتيادي، وإن كنت أذكر أنني تعجبت كيف لم تنكسر الصنارة حين رفعتها بلا مهارة تذكر خارج المياه في قوس كبير قطع الهواء.

بعد عشر دقائق بلغت الموضع الذي كان النهر يتفرع عنده في تلك الأيام حول صخرة رمادية كبيرة تكاد تبلغ في حجمها فناء بيتنا.

كانت هناك مساحة مسطحة يغطيها العشب الناعم، وتطل على ما كان والدي (دان) يطلقان عليه (الفرع الجنوبي).

جلست القرفصاء ورميت خيط الصنارة في المياه وأخرجت على الفور سمكة تروت كبيرة.

لم تكن في حجم الأولى - لا يتجاوز طولها قدمًا - لكنها سمكة جيدة.

نظفتها قبل أن تكف زعانفها عن الحركة ووضعتها في سلتي ثم ألقيت بالخيط في الماء ثانية.

تلك المرة لم تمسك سمكة بالطعم على الفور.. وهكذا تراجعت في جلستي ونظرت إلى شريط السماء الأزرق الذي تبينته على طول النهر.

كانت السحب كثيرة تتحرك من الشرق والغرب، وحاولت التفكير في الأشياء التي تشبهها تكويناتها البيضاء. رأيت حصانًا وحيد القرن، ورأيت دجاجة، ورأيت كلبًا يشبه (كاندي بيل). وكنت أحاول تبين شكل السحابة التالية حين غلبني النعاس.

ربما نمت.

لا أعرف.

كل ما أعزفه هو أنني أفقت على شدة قوية من صنارتي كادت تخلعها من يدي. اعتدلت في جلستي وأمسكت بالصنارة بقوة، وفجأة أدركت أن شيء ما جالس على طرف أنفي.

نظرت إليه وتعرفت فيه على نحلة. أحسست بقلبي يهوي بين ضلوعي، وللحظة اعتراني فيها الرعب أدركت أنني سأبلل سروالي.

شعرت بالشدة من خيط الصنارة ثانية.. أقوى هذه المرة.. لكن على الرغم من إحكام قبضتي حول الصنارة بحيث لا تقع في النهر وتنجرف، فلم أبذل أي مجهود لإخراج السمكة التي اشتبكت بالخيط.

تركز كل انتباهي على شيء أسود وأصفر يستعمل أنفي كمحطة للراحة.

أخرجت شفتي السفلى ببطء ونفخت الهواء فرفرفت النحلة قليلاً لكنها بقيت في مكانها. نفخت الهواء من فمي ثانية، لكن هذه المرة تحركت متململة، ولم أجرؤ على النفخ ثانية خوفا من أن تفقد أعصابها وتقرصني.

كانت قريبة مني لدرجة لم أتمكن معها من التفكير فيما أفعله، لكن كان من السهل أن أتخيلها تلج إلى إحدى فتحتي أنفي وتطلق سمها في عيني.

ثم إلى مخي.

فكرة مفزعة..

كانت تلك هي نفس النحلة التي قتلت أخي.

كنت أعرف أن تلك الفكرة ليست صحيحة.. ليس فقط لأن نحلة العسل لا تعيش لأكثر من عام، لكن أيضًا لأن النحلة تموت بعد أن تقرص، وفي سن التاسعة كنت أعرف هذا.

ينغرس الطرف المدبب الذي تقرص به في الجلد، وحين تحاول الطيران مبتعدة ينخلع منها فتتمزق.

لكن بقيت الفكرة في رأسي.. هذه نحلة خاصة..

نحلة شيطانية، وعادت لتنهي حياة آخر أبناء (ألبيون) و(لوريتا).

ثم إن هناك شيء آخر..

تعرضت للسعات النحل من قبل وعلى الرغم من أن موضع القرص كان يلتهب ويتضخم أكثر من المعتاد، فلم أمت بسبب أي منها.

أخي فقط هو الذي مات.. فخ رهيب نصب له ونصبه بيديه..

فخ هربت منه بطريقة ما. لكنني قاربت عيني من بعضهما ثانية ونظرت إليها حتى أوجعتني وأنا أحاول التركيز على النحلة.. لم يكن للمنطق موضعاً. لا شيء غير النحلة..

هي فقط..

النحلة التي قتلت أخي..

قتلته أبشع قتلة حتى إن أبي أنزل حمالات ردائه ليخلع القميص ويغطي به وجه (دان) المنتفخ الملتهب.

حتى في أعماق حزنه فعل هذا؛ لأن لم يرغب في أن ترى زوجته ما صار إليه ابنها البكر.

والآن عادت النحلة، والآن ستقتلني.

ستقتلني وسوف أموت على الضفة أنازع الأنفاس.

جلست أرتعد على حافة الذعر.. حركة خفيفة من قدمي ثم سأهب لأركض إلى أي اتجاه.. ثم سمعت شيئًا من خلفي.

كان صوتًا حادًا وقاطعًا مثل رصاصة منطلقة من مسدس، لكنها لم تكن برصاصة..

بل شخص يصفق بيديه.

مرة واحدة.

ولحظة سماعها وقعت النحلة من فوق أنفي وسقطت على حجري.

رقدت على سروالي وأقدامها لأعلى وطرفها المدبب لا خوف منه.

ماتت وكأنها مسمار.. هكذا أدركت على الفور. وفي نفس اللحظة شد شيء ما الصنارة ثانية.. بقوة هذه المرة، وكدت أفلتها.

سحبتها بيدي ورفعتها رفعة حمقاء لو رآها أبي كان ليمسك رأسه بيديه من الدهشة.

سمكة تروت كبيرة، أكبر من التي أمسكتها في البداية.. ارتفعت من الماء وتناثرت من ذيلها قطرات الماء.. بدت مثل تلك السمكات التي نراها في لوحات الأسماك الكلاسيكية التي توضع على مجلات الرجال مثل (ترو) و(مانز أدفانتشر) التي كانت تصدر في الأربعينيات والخمسينيات.

وفي تلك اللحظة كان رفع تلك السمكة الكبيرة هو أخر ما يشغل عقلي، لكن الصنارة انكسرت وعادت السمكة إلى الماء، ولم أكد ألحظ ما جرى.

نظرت من فوق كتفي لأرى من صفق.

رأيت رجلاً واقفًا يعلوني عند طرف الأشجار.

كان وجهه طويلاً للغاية وشاحباً. كان شعره الأسود مصففًا بعناية شديدة مشدودًا على جبينه وفيه فرق على الجانب الأيسر من رأسه الرفيع. كان طويلاً للغاية. كان يرتدي سترة من ثلاث قطع، وعرفت على الفور أنه ليس من البشر؛ لأن عينيه كانتا بلون أحمر برتقالي كأنها من لهب الفرن.

لا أعني قزحية العين فقط، فهو لم تكن لديه قزحية، ولا بؤبؤ للعين، ولا بياض. كانت عينيه بلون برتقالي أصم.. لون برتقالي يتحرك ويرفرف مشتعلاً. ويبدو أن الوقت قد فات على قول ما أعني.. أليس كذلك؟ كانت النار تضطرم داخله، وعينيه ليستا سوى تجويفين كالتجاويف التي تراها في الأفران عادة.

تبولت على نفسي، وتحول لون النحلة الميتة إلى لون بني داكن بسبب السائل الذي تدفق.

لم أع ما حدث، ولم أتمكن من إبعاد عيني عن الرجل الواقف أعلى الضفة ينظر إليّ..

الرجل الذي خرج من غابة ممتدة لمسافة ثلاثين ميلاً غربي (ماين) في سترة سوداء أنيقة وحذاء ضيق من جلد لامع. رأيت سلسلة الساعة تلمع في جيب سترته على نور الشمس الصيفية..

وكان يبتسم لي.

قال بصوت لين لطيف:

ـ "عجباً. إنه فتى صياد!"

ـ "تخيلوا هذا! أهي فرصة سعيدة أيها الفتى الصياد؟"

قلت:

ـ "مرحبًا يا سيدي".

وكان الصوت الذي انبعث مني غير مهتز، وإن لم يكن صوتي أيضاً. بدا صوتًا ناضجاً، وكأنه صوت (دان)، أو ربما صوت أبي.

كل ما تمكنت من التفكير فيه هو أنه قد يدعني أبتعد لو تظاهرت بأنني لا أعرف من هو.

لو تظاهرت بأنني لا أرى ألسنة اللهب تشتعل وتتراقص حيث كان يجب أن تكون له عينين.

قال:

- "لقد أنقذتك من قرصة بشعة"..

ثم تقدم أسفل الضفة حيث تجلس النحلة الميتة في حجري المبتل، وصنارة الصيد في يدي التي انهارت أعصابها.

كان لابد أن ينزلق حذائه المترف اللامع على الأرض العشبية المنحدرة وهو يهبط الضفة، لكن هذا لم يحدث، ولم أر أثار أقدام من خلفه أيضاً!!.

حيث كانت قدميه تلمسا الأرض لم أر ورقة عشب واحدة مكسورة، أو ورقة شجر مهشمة، أو علامة لحذاء على الأرض.

حتى قبل أن يبلغني تعرفت على الرائحة المنبعثة من تحت السترة..

رائحة أعواد الثقاب المشتعلة. رائحة الكبريت.

هذا الرجل ذو السترة السوداء هو الشيطان.

خرج من أعماق الغابة الواقعة بين (موتون) و(كاشواكاماك) وها هو ذا واقف أمامي.

من طرف عيني لمحت يدًا شاحبة كيد دمية معروضة في نافذة عرض المتجر. كانت الأصابع طويلة بشكل مريب.

اتكأ بيده على الأرض وجلس إلى جواري، وطقطقت ركبتيه مثل مفاصل أي رجل عادي، لكن حين حرك يديه بحيث صارتا بين ركبتيه رأيت أن كل من أصابعه الطويلة تنتهي بمخالب صفراء طويلة بدلاً من الأظافر.

قال لي بصوته اللين اللطيف:

- "لم تجب سؤالي أيها الفتى الصياد"..

كان صوته يشبه أصوات المعلنين في الراديو الذين يروجون لماركات كبيرة في السنوات التالية..

هؤلاء الذين كانوا يروجون لسلع مثل (جريتول) و(سيروتان) و(أوفالتين) وغليون دكتور (جرابو)..

- "أهي صدفة سعيدة؟"

همست بصوت خفيض لم أتمكن حتى من سماعه:

- "أرجوك لا تؤذني"..

كنت خائفًا إلى درجة لا يمكنني التعبير عنها بالكتابة، أكثر خوفًا مما أود أن أتذكر.. لكنني أذكر.. أذكر.

لم يخطر ببالي قط أن أتمنى أن يكون ما جرى يومها حلماً، وإن كان ذلك ممكن على ما أعتقد إذا كنت أكبر سناً. لكنني لم أكن أكبر.

كنت في التاسعة من عمري، وكنت قادرًا على التعرف على الحقيقة حين تجلس إلى جواري هكذا. كنت قادرًا على معرفة الفرق بين الصقر والمنشار، كما أعتاد أبي أن يقول.

كان الرجل الذي خرج من الغابة في ساعة عصر يوم السبت الصيفي ذلك هو الشيطان، ووراء فجوتي عينيه كان مخه يحترق.

سألني وكأنه لم يسمعني وإن كنت أعرف أنه سمعني:

- "ما هذا؟ هل تشم شيئاً؟ هل أشم شيئاً.. مبتلاً؟"

مال ناحيتي وطل بأنفه مثل من يرغب في استنشاق زهرة، ولاحظت شيئًا رهيباً.. مع حركة ظله على الضفة حيث يجلس كان العشب تحت الظل يتحول إلى اللون الأصفر ويموت.

أحنى رأسه ناحية سروالي وتشممه. كانت عينيه الحمراوين نصف مغمضتين، وكأنه يستنشق رائحة عطرية مدهشة ويريد التركيز عليها دون غيرها.

هتف:

- "رائحة خبيثة.. خبيثة جميلة! كأنها الياقوت! الماس! المرجان! تراني أشم عطر ليمون (جاري)!"

ثم ألقى بنفسه على ظهره وأخذ يضحك في جموح. كانت ضحكاته مجنونة.

فكرت في الجري، لكن قدمي وكأنهما على مسافة أميال من عقلي. لم أبك على ما أعتقد.. بللت سروالي مثل الطفل الرضيع، لكنني لم أبك. كنت أكثر خوفًا من أن أبكي. أيقنت فجأة أنني سأموت، وستكون ميتة مؤلمة، لكن الأسوأ أن الموت قد لا يكون الأسوأ.

الأسوأ سيأتي لاحقًا.

بعد أن أموت.

اعتدل في جلسته فجأة وانبعثت رائحة أعواد الثقاب المحترقة من سترته قوية وأصابت حلقي بالجفاف. نظر إليَّ بوجهه الأبيض الرفيع وعينيه المحترقتين، لكنه بدا موحيًا بالضحك.

دائمًا ما يحيطه الضحك.

قال:

- "لدي أخبار سيئة أيها الفتى الصياد. جئتك ومعي أخبار سيئة".

لم أتمكن من فعل شيء غير النظر إليه، وإلى السترة السوداء، والحذاء الأسود اللامع، والأصابع الطويلة التي لا تنتهي بأظافر، بل بمخالب.

- "ماتت أمك ".

صحت:

- "لا !"

فكرت فيها وهي تعد الخبز، وفي الخصلة المنفلتة من شعرها على جبينها تكاد تمس حاجبها، واقفة يغمرها نور الصباح القوي، واستولى الرعب عليّ ثانية.. لكن ليس خوفا على نفسي هذه المرة.

ثم فكرت في كيف بدت لي وأنا أخرج ومعي صنارتي.. عند باب المطبخ ويدها تغطي وجهها، وكيف بدت لي للحظة وكأنها صورة لشخص تتوقع ألا تراه ثانية. صحت فيه:

- "لا. أنت كاذب!"

ابتسم.. ابتسامة صبور حزينة لرجل اتهم ظلمًا بما ليس فيه.

قال:

- "للأسف لست كاذباً. نفس ما جرى لأخيك يا (جاري).. نحلة".

قلت وقد بدأت أبكي:

- "لا. هذا غير صحيح. إنها كبيرة.. إنها في الخامسة والثلاثين، ولو كانت أية نحلة لتقتلها كما قتلت داني، كانت لتموت منذ زمن بعيد.. أنت ابن حرام كاذب!"

قلت للشيطان إنه ابن حرام.

كنت واعيًا بما قلت إلى حد ما، لكن ما كان يتصدر اهتماماتي العقلية استولى على جُل ما قلت من أهمية.

أمي ماتت؟

وكأنه يقول أن محيط جديد ظهر موضع سلسلة جبال "روكي".

لكنني أصدقه. على مستوى ما صدقته تماماً، كما نصدق دائمًا أسوأ ما يتصوره عقلنا.

تكلم بلهجة عزاء زائفة ومخيفة لا أثر فيها للشفقة أو الحزن:

- "أتفهم حزنك أيها الفتى الصياد، لكن رفضك هذا لا جدوى منه على ما أخشى. يمكن أن يمضي أي شخص حياته كاملة دون أن يرى الطيور، لكن هل يعني هذا أن الطيور غير موجودة؟ إن أمك.."..

قفزت أمامنا سمكة. قطب الرجل ذو السترة السوداء جبينه، ثم أشار بإصبعه إليها. ماتت سمكة التروت في الهواء وانحنى جسدها إلى أقصى درجة حتى تخيلت أنها ستأكل ذيلها، وحين سقطت في المياه ثانية طفت

على صفحة النهر ميتة. ضربت الصخرة الرمادية الكبيرة حيث مفرق النهر ودارت مرتين في دوامة صغيرة إلى جوارها ثم أخذت تطفو تجاه (كاسل روك).

وفي نفس الوقت أدار الغريب المرعب عينيه المحترقتين إليّ ثانية، وتراجعت شفتيه الرفيعتين لتكشفا عن صف من الأسنان الحادة في ابتسامة مرعبة.

قال:

- "قضت أمك حياتها كاملة دون أن تتعرض لقرصة نحلة.. لكن منذ أقل من ساعة طارت واحدة عبر نافذة المطبخ وهي تخرج الخبز من الفرن وتضعه على المنضدة ليبرد".

- "لا. لن أسمع هذا.. لن أسمع هذا.. لا!"

رفعت يديّ وصفقت على أذنيّ عدة مرات. زم شفتيه وكأنه سيصفر.. ثم نفخ الهواء برفق. كان نفسًا ضئيلاً، لكن الرائحة المنبعثة كانت بشعة إلى درجة لا تصدق.. وكأنها رائحة المجارير والمستنقعات المليئة بالدجاج الميت بعد انتهاء الفيضان.

سقطت يديّ بعيدًا عن جانبي وجهي.

قال:

ـ "جيد. أنت بحاجة لسماع هذا يا (جاري). أنت بحاجة لمساعدة أيها الفتى الصياد. أمك هي من نقلت ذلك المرض الوراثي إلى أخيك دان، ولديك بعضه أيضًا لكنك أخذت الحماية من والدك، ولم يأخذها دان المسكين"..

زم شفتيه ثانية، لكن هذه المرة صدر عنه صوت ضئيل.. *(تؤ تؤ)*.. بدلاً من أن ينفخ الهواء ثانية..

ـ "لذا فعلى الرغم من أنني لا أحب الكلام عن الموتى بما يسوء، فأنا أرى أن هذه عدالة شاعرية، أليست كذلك؟ بعد كل شيء فهي من قتلت أخاك دان وكأنها وضعت فوهة بندقية لصق رأسه وضغطت الزناد".

همست:

ـ "لا. هذا غير صحيح".

قال:

ـ "أؤكد لك أنه صحيح. طارت النحلة عبر النافذة ووقفت على رقبتها. ضربتها بيدها قبل أن تعي ما تفعله.. كنت أنت أحكم منها، أليس كذلك يا (جاري)؟ وقرصتها النحلة. أحست برقبتها تنقبض فوراً. هذا ما يحدث لمن لديهم حساسية لسم النحل كما تعرف. تنقبض رقابهم

ويغرقون في الهواء وليس في الماء. لهذا كان وجه دان منتفخًا ومزرقًا. ولهذا غطى أبوك وجهه بقميصه".

حدقت فيه غير قادر على الكلام. انهمرت الدموع على وجنتيّ. لم أرغب في تصديقه، وكنت أعرف مما تعلمته في مدرسة الكنيسة الدينية أن الشيطان هو سيد الكذب، لكنني صدقته. صدقت أنه كان واقفًا عند مدخل بيتنا ينظر عبر نافذة المطبخ وأمي تسقط على ركبتيها وتمسك برقبتها المنتفخة و(كاندي بيل) يرقص حولها وهو ينبح.

قال الرجل ذو السترة السوداء:

- "صدرت عنها أصوات مؤلمة كثيرة.. وخدشت وجهها بيدها على ما أخشى. انتفخت عيناها مثل عيني ضفدعة.. كما بكت" ..

توقف عن الكلام ثم أضاف:

- "بكت وهي تموت.. أليس هذا عذباً؟ وها هو ذا أجمل شيء في الموضوع. بعد أن ماتت.. بعد أن رقدت على الأرض خمس عشرة دقيقة بلا صوت في الحجرة بخلاف صوت الفرن وما زال ذيل النحلة في جانب عنقها صغير.. صغير للغاية.. أتعرف ماذا فعل كاندي بيل؟ ذلك النذل الوضيع لعق دموعها. لعق جانب وجهها ثم الجانب الآخر".

نظر إلى النهر لوهلة ووجهه حزين وكأنه يتأمل، ثم التفت ثانية إليّ وقد اختفى تعبير وجهه المتألم وكأنه حلم انتهى.

كان وجهه رخوًا وشرهًا كوجه جثة شخص مات جائعاً.

لمعت عيناه، ورأيت صف أسنانه الحادة بين شفتيه الشاحبتين.

قال فجأة:

- "أنا أتضور جوعاً. سأقتلك وأمزقك وآكل أحشائك أيها الفتى الصياد. ما رأيك في هذا؟"

حاولت أن أقول لا.. من فضلك لا.. لكن لم يخرج مني صوت.

كان سيفعلها كما رأيت. كان سيقتلني حقاً.

قال وكأنه يشاكسني ويغيظني:

- "أنا جائع.. وأنت لا تريد أن تحيا بعد أن ماتت أمك المسكينة.. أنا واثق من هذا ولتثق في كلامي. لأن والدك ليس شخصًا طيبًا أبداً، وسيعاملك بكل قسوة.. صدقني، وإذا كنت الوحيد أمامه فسوف يعاملك كما عامل أمك، وستكون الوحيد المتاح أمامه لتخدمه. سأنقذك من هذا الضياع والألم. كما أنك ستذهب إلى الجنة.. فكر في هذا.. الأرواح المقتولة تذهب دائمًا إلى الجنة، وهكذا سنخدم الرب معًا هذا المساء. أليس هذا جميلاً يا (جاري)؟"

مد يده إليّ ثانية.. يداه الطويلتان الشاحبتان..

ودون تفكير فيما أفعله فتحت سلة السمك وقلبتها رأسًا على عقب، واخرجت منها السمكة الهائلة التي اصطدتها.. تلك التي كان يجب أن أرضى بها وأعود.

مددتها إليه وأصابعي في التجويف الأحمر حيث نظفتها، وحيث هدد الرجل ذو السترة السوداء أن يزيل ذلك الجزء مني.

حدقت عيون السمكة الخاوية فيَّ، وذكرتني الحلقة الذهبية حول العين بخاتم زواج أمي. وفي تلك اللحظة رأيتها راقدة في كفنها والشمس تغمرها وعرفت أن ما قاله حق.. لقد قرصتها نحلة وغرقت في الهواء الدافئ المعبق برائحة الخبز، ولعق (كاندي بيل) دموعها من على وجهها المنتفخ بعد أن ماتت.

قال الرجل ذو السترة السوداء بصوت عميق شره:

- "سمكة كبيرة! *سسسمكة كبيييرة* !"

اختطفها مني وألقاها في فمه الذي انفتح إلى حد أوسع من أي فم آدمي.

بعد سنوات عديدة وحين بلغت الخامسة والستين (وأعرف أنني كنت في الخامسة والستين؛ لأنه كان العام الذي تقاعدت فيه عن التدريس) ذهبت إلى حديقة أسماك (نيو إنجلاند) ورأيت سمكة قرش.

كان فم الرجل ذو السترة السوداء مفتوحًا مثل فم سمكة القرش حين تفتحه، والفرق الوحيد أن فمه من الداخل كان أحمر براقًا، بنفس لون عينيه الرهيب، وشعرت بالحرارة تتدفق منه وتمس وجهي، كما تداهمك موجة مفاجئة من الحرارة المنبعثة من المدفأة بعد أن تلقي فيها الحطب الجديد.

ولم أتخيل تلك الحرارة أيضاً؛ لأنه قبل أن يلقي برأس السمكة البالغ طولها تسع عشرة بوصة بين فكيه المفتوحين رأيت قشور السمكة ترتفع وتتآكل مثل ورقة تلتهمها النيران.

ابتلع السمكة كما يبتلع الساحر في سيرك رحال السيف.

لم يمضغها، وجحظت عيناه اللامعتان وكأنه بذل جهد مضن.

مضت السمكة إلى داخله وانتفخ حلقه وهي تنزلق عبر فمه..

ثم بدأ يبكي مطلقًا دموعه..

لكن دموعه كانت دماً.. حمراء وغليظة القوام.

أعتقد أن رؤية تلك الدموع الدموية هي التي أعادت إليَّ جسدي المسلوب. لا أعرف لماذا، لكن أعتقد أنها كانت السبب.

نهضت إلى قدميَّ مثل عفريت العلبة، ودرت على عقبي وما زالت الصنارة في يدي وانطلقت أعدو أعلى الضفة وأنا أمزق العشب بيدي الأخرى وأنزعه محاولاً تسلق الضفة المنحدرة سريعاً.

صدر عنه صوت مختنق غاضب..

صوت رجل بفم مفتوح..

ونظرت إليه وأنا أعلى الضفة. كان يتقدم ساعيًا إليّ، وظهر سترته يتطاير من خلفه وسلسلة ساعته الذهبية تتحرك وتلمع تحت الشمس.

كان ذيل السمكة ما زال خارج فمه وتمكنت من اشتمام ما بقي من لحمها منبعثة رائحته من حلقه الشبيه بالفرن.

مد يده إليّ وامتدت مخالبه الطويلة، وجريت أعلى الضفة. بعد مائة ياردة أو ما يقاربها عاودني صوتي، فتمكنت من الصراخ..

صرخة رعب بالطبع، لكنها أيضًا صرخة حزن على أمي الجميلة التي ماتت.

كان خلفي يطاردني.

سمعت الأغصان الميتة تحت قدميه والشجيرات التي يدفعها بيديه وجسده، لكنني لم أنظر إلى الخلف ثانية.

أحنيت رأسي وضيقت عيني والشجيرات والفروع الواطئة تضرب وجهي وأنا أجري على طول ضفة النهر.. أجري بأسرع ما يمكنني. ومع كل خطوة أتوقع الإحساس بيديه تمسكا بكتفي وتجذباني إليه في عناق ساخن رهيب.

لم يحدث هذا.

بعد فترة لا أعرفها من الوقت - لا تزيد عن خمس أو عشر دقائق على ما أعتقد، لكنها بدت لي دهرًا كاملاً - رأيت الجسر من بين الأغصان والأوراق.

وأنا ما زلت أصرخ مبهور الأنفاس وصوتي مثل براد الشاي الذي غلي حتى جفت مياهه، وصلت إلى تلك الضفة الثانية الأكثر انحدارًا وجريت عبرها.

في منتصف الطريق إلى قمتها انزلقت ووقعت على ركبتيَّ ونظرت ورائي ورأيت الرجل ذو السترة السوداء يكاد يلحق بي، ووجهه الأبيض قد تحول إلى ثورة من الغضب العارم والطمع والشراهة.

كانت الدموع الدموية تغمر وجهه وفمه الهائل مفتوح على أخره.

قال مزمجرًا وهو يعتلي الضفة من خلفي:

- "أيها الفتى الصياد!"

ثم أمسك قدمي بإحدى يديه الطويلتين، لكنني تحررت منه وألقيت بصنارتي عليه. تخلص منها بسهولة لكنها جعلته يتعثر قليلاً ولا أعرف كيف. كدت أسقط بعد أن بلغت القمة لكنني تمكنت من الإمساك بإحدى دعامات الجسر السفلية لأنقذ نفسي.

صاح من خلفي:

- "لا يمكنك الابتعاد أيها الفتى الصياد!"

بدا لي غاضباً، لكن وكأنه يضحك في نفس الوقت..

- "سمكة تروت واحدة لا تكفي لإشباع جوعي".

صرخت فيه:

- "دعني لشأني"..

ثم أمسكت بحاجز الجسر وألقيت بنفسي وراءه بعد أن درت في الهواء بطريقة سخيفة وتجاوزته وضربت برأسي ألواح أرضية الجسر الخشبية فرأيت نجومًا تتراقص أمام عينيّ.

درت على بطني وبدأت أزحف. نهضت إلى قدميّ عند نهاية الجسر وتعثرت مرة، ثم بدأت أجري.

جريت كما لطفل في التاسعة من عمره أن يجري.. جريت كالريح. شعرت بقدمي لا تلمس الأرض إلا كل ثلاث أو أربع خطوات، وكان هذا ما حدث كما تخيلت. جريت على الطريق.. جريت حتى شعرت بعيني تكادا تخرجا من مقلتيهما.. جريت حتى شعرت بسكين حاد يضرب جانبي الأيسر من ضلوعي ويكاد يبلغ إبطي.. جريت حتى تذوقت الدم وشيئًا مثل برادة الحديد في حلقي.

حين لم أعد قادرًا على التحمل تعثرت وتوقفت ونظرت خلفي من وراء كتفي.. وأنا أنفخ الهواء مثل حصان تقطعت أنفاسه.

كنت مقتنعًا بأنني سأراه واقفًا خلفي بسترته السوداء الأنيقة، والسلسلة الذهبية معلقة ولا شعرة من رأسه قد تغير مكانها.

لكنه اختفى.

رأيت الطريق خلفي يمتد إلى نهر (كاسل) وبيني وبينه أشجار الصنوبر والتنوب. لكنني أحسست بأنه قريب وسط تلك الغابة يراقبني بعينيه الناريتين ورائحة أعواد الثقاب والسمك المشوي.

التفت وبدأت أسير بأسرع ما يمكنني..

أصيبت عضلات ساقي بانقباضات شديدة، وحين صحوت من النوم في اليوم التالي كنت لا أكاد أقدر على السير.

لم ألحظ تلك الأشياء وقتها، وداومت على النظر ورائي من الحين للآخر لأتأكد من أن الطريق ما زال خالياً. وكل مرة أطل كانت تلك النظرات المختلسة إلى الخلف تزيد من خوفي بدلاً من أن تخففه. رأيت الأشجار مسربلة بالظلام، وتخيلت أن وراء كل شجرة وممر في قلب الغابة وهاد وهوى سحيقة. حتى يوم السبت ذلك سنة ١٩١٤ كنت أعتقد أن الدببة هي أسوأ المخلوقات التي قد تحويها الغابة.

لكنني عرفت الحقيقة.

على مسافة ميل أو نحوه أعلى الطريق وحيث تنتهي الغابة ويصبح الطريق ممهدًا سهلاً رأيت أبي يسير تجاهي وهو يصفر، وفي يده صنارته وفي يده الأخرى سلة الصيد التي صنعتها أمي وزينتها بالأشرطة حين كان (دان) ما زال حياً، وكان المكتوب على الشريط المطرز "هدية إلى يسوع المسيح".

كنت أسير لكنني حين رأيته بدأت أجري ثانية وأنا أصرخ أبي! أبي! بأعلى صوتي وأنا أترنح، وأشعر بقدمي تتطوحان مثل بحار سكير.

كان تعبير الدهشة على وجهه حين رآني ليبدو مضحكًا في ظروف أخرى، لكن ليس في تلك الظروف.

ألقى بصنارته وسلة الصيد على الطريق دون أن ينظر إليها ثم جرى نحوي.

كانت تلك اللحظة هي حين رأيت أبي في أقصى سرعته، وحين بلغني شعرت بالدهشة لأننا لم نصطدم ببعضنا..

بل ألقيت بوجهي على حزام سرواله بقوة كافية لإصابة أنفي بالنزيف.

لم ألحظ النزيف إلا لاحقاً.

وقتها مددت ذراعيّ وأمسكت به بأقصى ما لدي من قوة.

أخذت أمسح وجهي الساخن على بطنه وأنا أغرق قميصه الأزرق القديم في دمي ودموعي.

- "(جاري). ما الأمر؟ ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟"

أخذت أبكي وأقول:

- "*أمي ماتت!* قابلت رجلاً في الغابة وقال لي هذا! أمي ماتت! قرصتها نحلة وانتفخ وجهها مثلما حدث لدان، وماتت! إنها على أرضية المطبخ.. وكاندي بيل لعق*د.. د.. دموعها.. عن.. عن.. عـ..*"

كانت كلمة "وجهها" هي آخر ما قلته، ثم بدأ صدري يتحرك لأعلى وأسفل بقوة وكأنه سينخلع مني.

بدأت دموعي تتدفق غزيرة، وأصيب أبي بالفزع والذعر ورأيت وجهه وقد تحول إلى ثلاثة وجوه تحت أثر الدموع.

بدأت أعوي..

ليس مثل طفل صغير جرح ركبتيه، بل مثل كلب رأى شيئًا مخيفًا على ضوء القمر..

وضغط أبي رأسي على بطنه ثانية. انزلقت من تحت يديه ونظرت فوق كتفي. أردت التأكد من أن الرجل ذو السترة السوداء لا يقترب مني.

لم أر له أثراً..

ورأيت الطريق يمضي ملتفا ورائي إلى قلب الغابة الخالية. قلت لنفسي إنني لن أمشي على ذلك الطريق ثانية، أبداً.. مهما حدث.

وأعتقد أن أهم نعم الله على عباده في الأرض هي أنهم غير قادرين على رؤية المستقبل.

ربما كان عقلي لينهار لو عرفت أنني سأمشي على ذلك الطريق بعد أقل من ساعتين.

في تلك اللحظة شعرت بالراحة لأننا وحدنا. ثم فكرت في أمي.. أمي الجميلة الميتة.. فوضعت رأسي لصق بطن أبي وأخذت أنتحب.

قال لي بعد لحظة:

- " اسمعني يا (جاري)".

فبكيت أكثر.

تركني أبكي قليلاً، ثم مد يده ورفع ذقني لأنظر في وجهه وفي عينيه.

قال لي:

- "أمك بخير".

نظرت إليه والدموع تملأ عيني وتنهمر على وجنتي. لم أصدقه.

- "لا أعرف من قال لك خلاف هذا، أو أي كُلب قذر ذلك الذي يريد إخافة ولد صغير إلى هذه الدرجة. لكن أقسم بالله إن أمك بخير".

- "لكن.. لكنه قال.."

- "لا يهمني ما قاله. عدت من عند إيفرشام قبل موعدي المحدد.. فهو لا يريد أن يبيع بقراته.. لم نفعل غير الكلام.. وقررت أن الوقت قد حان لألحق بك. أحضرت صنارتي وسلتي وصنعت لي أمك شطيرتين. خبزها الجديد ما زال دافئاً. كانت بخير منذ نصف ساعة يا (جاري)، لا تصدق من يقول خلاف هذا.. أضمن لك هذا. لا يمكن أن تصاب بضرر في نصف ساعة"..

ثم نظر وراءه وأضاف:

- "من كان ذلك الرجل؟ وأين كان؟ سأجده وأضربه بقسوة".

فكرت في ألف شيء في ثانية واحدة.. لكن الشيء الأخير الذي تبادر إلى عقلي هو: إذا قابل أبي الرجل ذو السترة السوداء فلن يكون أبي هو من سيضرب، أو من سيسير مبتعدًا بعد انتهاء اللقاء.

تذكرت أصابعه البيضاء الطويلة، والمخالب في نهاية كل إصبع.

- "(جاري)؟"

قلت:

- "لا أعرف ولا أذكر".

- "هل كنت عند مفترق النهر؟ عند الصخرة الكبيرة؟"

لا يمكنني الكذب على أبي حين يسألني سؤالاً مباشراً.. ولا حتى لإنقاذ حياته أو حياتي. قلت:

- "أجل، لكن لا تذهب".

أمسكت ذراعه بيدي وسحبته بقوة..

- "أرجوك ألا تذهب. إنه رجل مخيف".

ثم واتاني الإلهام لينير لي الطريق وكأنه لسان من البرق:

- "إن معه بندقية".

نظر إلي متفكراً..

- "ربما لم يكن هناك رجلاً".

قالها وهو يرفع صوته قليلاً في الكلمة الأخيرة ويحولها إلى ما يشبه السؤال:

- "ربما نمت وأنت تصطاد يا بني وحلمت حلمًا مفزعاً. مثل تلك الأحلام التي كانت تراودك عن داني الشتاء الماضي".

كنت قد حلمت بـ(دان) كثيرًا خلال الشتاء الماضي، أحلام أفتح فيها باب الدولاب وأراه معلقًا ينظر إليّ بوجهه الأزرق المنتفخ، فكنت أفيق خائفًا من تلك الأحلام وأصرخ لأوقظ أبوي.

نمت على ضفة النهر قليلاً أيضًا لكنني لم أحلم، وأنا واثق من أنني أفقت لأرى الرجل ذو السترة السوداء يصفق بيديه لتموت النحلة وتسقط من على أنفي إلى حجري.

لم أحلم به كما كنت أحلم بـ(دان)، وكنت واثقًا من هذا، وإن كانت مقابلتي لأبي جعلت ما جرى شبيهًا بالحلم في رأسي، كما يجب لحدث فائق للطبيعة أن يكون في عقل من يواجهه.

لكن إذا كان أبي يحسب الرجل مجرد حلم في رأسي فهذا أفضل. أفضل له.

قلت:

- "ربما هذا هو ما حدث".

- "إذن علينا العودة للبحث عن صنارتك وسلة السمك".

بدأ يسير في ذلك الاتجاه وأمسكت بذراعه بقوة لأمنعه ثانية وأديره تجاهي.

قلت:

- "فيما بعد. أرجوك يا أبي. أريد رؤية أمي. لنذهب لأراها بعيني".

فكر قليلاً ثم أومأ برأسه وقال:

- "أجل. أعتقد هذا. لنذهب إلى البيت أولاً ولنعود لصنارتك وسلتك فيما بعد".

وهكذا سرنا عائدين إلى المزرعة معاً، وأبي معه صنارته معلقة من كتفه مثل أحد أصحابي، وأنا أحمل له سلته، ونحن نأكل معًا شطائر أمي المصنوعة من خبزها ومربى التوت.

سألني بعد أن اقتربنا من البيت:

- "هل اصطدت شيئاً؟"

قلت:

- "أجل يا سيدي. سمكة تروت.. سمكة كبيرة"

وسمكة أخرى أكبر.. أكبر سمكة أراها في حياتي في الواقع، لكنها ليست معي لأريها لك يا أبي. منحتها للرجل ذو السترة السوداء حتى لا يأكلني يا أبي. وانطلت عليه الخدعة.. لكن كدت أهلك.

- "أهذا كل شيء؟ لا شيء آخر؟"

- "بعد أن اصطدتها نمت".

لم تكن تلك بالإجابة، لكنها لم تكن كذبًا أيضاً.

- "من حسن حظك أنك لم تفقد صنارتك. لم تفقدها يا (جاري)، أليس كذلك؟"

قلت متردداً:

- " فقدتها يا سيدي".

الكذب لن يجدي نفعًا حتى لو فكرت في كذبة جيدة..

ليس إذا قرر العودة لاستعادة السلة، ورأيت من وجهه أنه مصمم على هذا.

أمامنا رأيت (كاندي بيل) يجري إلينا من الباب الأمامي المفتوح وهو ينبح نبحاته الحادة ويهز ذيله كما تفعل الكلاب حين تشعر بالإثارة.

لم أتمكن من الانتظار، وأحسست بالأمل والقلق يعتملان داخلي.

ابتعدت عن أبي وانطلقت تجاه البيت وأنا ما زلت محتفظًا بسلته وما زلت مقتنعًا بأنني سأجد أمي ميتة على أرضية المطبخ ووجهها منتفخ وأزرق مثل وجه (دان) حين حمله أبي قادمًا من الحقل الغربي وهو يبكي وينادي اسم الرب.

لكنها كانت واقفة أمام مائدة المطبخ تدندن بأغنية وهي تقشر الفاصوليا وتلقي بالحبات في وعاء كبير.

نظرت إليّ في دهشة في البداية، ثم في خوف حين رأت عيني المتسعتين ووجهي الشاحب.

- "(جاري).. ما الأمر؟ ماذا حدث؟"

لم أجبها، بل جريت إليها وغمرتها بالقبلات.

وأثناء ذلك دخل أبي وقال:

- "لا تقلقي يا لو.. إنه بخير. فقط راوده أحد كوابيسه منذ قليل وهو عند النهر".

قالت وهي تحتضنني و(كاندي بيل) يرقص حول أقدامنا وينبح بصوته الحاد:

- "أرجو من الرب أن يكون الحلم الأخير".

قال أبي:

- "ليس عليك أن تأتي معي إذا لم ترغب في هذا يا (جاري)".

وإن أوضح من لهجته أنه يريدني معه، وأن عليّ العودة ومواجهة خوفي.

وهذا مناسب لمواجهة المخاوف المزيفة التي يتخيلها المرء، لكن مرور ساعتين لم يجعلني أتخلى عن قناعتي بأن الرجل ذو السترة السوداء لم يكن حقيقياً. لم أتمكن من إقناع أبي أيضاً. لا أعتقد أن هناك ولد عمره تسعة أعوام يمكنه إقناع أباه أنه رأى الشيطان يخرج من قلب الغابة في سترة سوداء. قلت:

- "سأحضر".

خرجت من البيت لأنضم إليه قبل أن يغادر وأنا أحاول استجماع شجاعتي لأحرك قدميّ..

وقفنا معًا في الفناء إلى جوار لوح تقطيع الحطب وليس بعيدًا عن الحطب المكوم.

سألني:

- "ما الذي تخفيه خلف ظهرك؟"

أخرجتُ ما خلف ظهري ببطء. سأذهب معه، وأتمنى أن يكون الرجل ذو السترة السوداء رفيع الوجه قد اختفى.. لكن إذا لم يختف فيجب أن أكون مستعداً.

مستعد قدر الاستطاعة.

كان في يدي الكتاب المقدس..

قررت إحضار إنجيلي الصغير الذي ربحته في مسابقة دينية، ثم عدلت عن ذلك.. أنا ذاهب لمواجهة الشيطان نفسه، فأحضرت الكتاب الكبير.

نظر أبي إلى الكتاب المقدس الذي تتخلله صور وأوراق الأسرة العديدة وظننته سيقول لي أن أعيده، لكنه لم يفعل.

رأيت نظرة حزن وتعاطف على وجهه، ثم أومأ برأسه.

قال:

- "حسن. هل تعرف أمك أنك أخذته؟"

- "كلا يا سيدي".

أومأ برأسه ثانية وقال:

- "إذن فلنتمنى ألا تبحث عنه قبل أن نعود. هلم. ولا تدعه يسقط من يدك".

بعد نصف ساعة وقفنا على ضفة النهر حيث يتفرع نهر (كاسل)، وعند المنطقة المسطحة حيث قابلت الرجل ذو العيون الحمراء البرتقالية الملتهبة.

أمسكت صنارتي التي التقطها عند الجسر ونحن سائران، ورأيت سلتي ملقاة مقلوبة. وقفنا ننظر إلى ما أمامنا.. أنا وأبي.. وقفنا طويلاً، ولم نتكلم.

الياقوت! الماس! المرجان! تراني أشم عطر ليمون (جاري)!

ها هنا قال تلك الكلمات..

شعره السخيف الذي تلاه عليَّ ثم ألقى بنفسه إلى الخلف وهو يضحك مثل طفل اكتشف أن لديه الشجاعة ليقول كلمات بذيئة.

كان المكان أخضر كأي موضع آخر في (ماين) مع بداية شهر يوليو.. فيما عدا حيث جلس الغريب. كان العشب ميتًا مصفرًا ويتخذ هيئة الرجل.

نظرت إلى يدي ورأيت فيها الكتاب المقدس مشرع أمامي وأصابعي تضغط عليه بقوة حتى إنها كانت بيضاء بعد أن هربت منها الدماء.

كانت تلك هي الطريقة التي يحمل بها "نورفيل" زوج (ماما سويت) شوكة الحفر وهو يساعد أحدهم في حفر بئر جديدة.

قال أبي أخيرًا وهو ينزل الضفة:

- "ابق هنا".

رأيت حذائه يحفر في التربة الغنية الناعمة وهو يحاول الحفاظ على توازنه. وقفت حيث أنا ممسكًا بالكتاب المقدس بيدي، وقلبي يخفق بجموح. لا أعرف إن كنت شعرت حينها بأن هناك من يراقبني..

كنت خائفًا إلى درجة فقدت معها الإحساس بأشياء كثيرة، فيما عدا الإحساس بالرغبة في الابتعاد عن ذلك المكان وتلك الغابة.

مضى أبي إلى الأسفل وتشمم العشب الميت ثم تغضن وجهه.

عرفت ما يشمه.. أعواد الثقاب المحترقة.

ثم أمسك بسلتي وعاد أعلى الضفة سريعاً.

ألقى بنظرة سريعة من وراء كتفه ليضمن أن لا شيء قادم وراءه. لم يكن خلفه شيئاً. ثم ناولني السلة وكان غطاءها ما زال مفتوحًا ومعلقًا من المفاصل. نظرت إلى ما بداخلها ورأيت بعض العشب.

قال أبي:

- "قلت إنك اصطدت سمكة تروت، لكن ربما حلمت بها هي الأخرى".

آلمني شيء ما في صوته فقلت:

- "كلا يا سيدي. لقد اصطدت واحدة".

- "من المؤكد أنها لم تقفز إلى خارج السلة إذا كنت نظفتها. ولا أعتقد أنك تضع السمك في السلة دون أن تفعل هذا، أليس كذلك يا (جاري)؟ لقد علمتك هذا!".

- "أجل يا سيدي، فعلت، لكن.."

- "إذن فإن لم تكن قد حلمت باصطيادها وإن كانت قد رقدت ميتة في السلة، فلابد أن شيء ما حضر وأكلها"..

كذا قال أبي ثم ألقى بنظرة سريعة فوق كتفيه بعيون واسعة خائفة وكأنه سمع ما يتحرك في الغابة.

لم أندهش لرؤية العرق يتصبب على جبينه مثل حبات اللؤلؤ الكبيرة. قال:

- "هيا بنا. لنخرج من هنا سريعاً".

وافقته على هذا، وعدنا أعلى الضفة وإلى الجسر، ونحن نسير سريعًا بلا كلام.

وحين وصلنا إلى الجسر جلس أبي على ركبته وتفحص المكان الذي وجدنا عنده صنارتي.

كانت هناك بقعة أخرى من العشب الميت، وكانت النباتات القصيرة النامية محترقة وكأنها تعرضت لانفجار.

وفيما كان أبي يفحصها نظرت إلى السلة الخالية. قلت:

ـ "لابد أنه عاد وأكل السمكة الأخرى أيضاً".

رمقني أبي وقال:

ـ "سمكة أخرى!"

ـ "أجل يا سيدي. لم أخبرك بشأنها، لكنني اصطدت سمكة أكبر.. سمكة كبيرة. كان ذلك الشخص جائعًا للغاية".

أردت قول المزيد، وتعثرت الكلمات على شفتي، لكن في النهاية لم أنطق.

تسلقنا الجسر وساعدنا بعضنا في اعتلاء الحاجز.

أمسك أبي بالسلة ونظر داخلها ثم مضى إلى حاجز الجسر وطوح بها بعيداً. وصلت إلى جانبه لأراها تضرب المياه وتطفو على السطح وكأنها قارب، ثم تسير مع التيار والمياه تحملها وسط أمواجها الرقيقة الناعمة.

قال أبي:

- "رائحتها خبيثة".

لكنه لم ينظر إليّ وهو يتكلم، وكان صوته غريبًا وكأنه يدافع عن نفسه وفعلته. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي اسمعه يتكلم فيها بتلك اللهجة.

- "أجل يا سيدي".

- "سنقول لأمك إننا لم نعثر عليها.. إذا سألت. إذا لم تسأل فلن نقول لها شيئاً".

- "كلا يا سيدي. لن نقول".

ولم تسل، ولم نتكلم.. وهكذا انتهى الموضوع.

* * *

كان ذلك اليوم في الغابة منذ أكثر من ثمانين عاماً، وعلى مدى السنوات المنقضية لم أفكر فيه قط.. وأنا يقظ على الأقل.

ومثل أي رجل أو امرأة لا يمكنني تذكر كل أحلامي.

لكن الآن صرت عجوزاً، وأحلم أثناء اليقظة على ما يبدو.

عجزي يزحف عليّ مثل أمواج تقترب من قلعة رملية بناها طفل على الشاطئ، وذكرياتي تزحف بعيدًا وتجعلني أفكر في ألحان قديمة مضت ورحلت عن ذاكرتي طويلاً..

بدأت أتذكر وجبات أكلتها، وألعاب لعبتها، وفتيات قبلتهن في المدرسة ونحن نلعب لعبة ساعي البريد، وأولاد رافقتهم، وأول مرة أشرب الخمر، وأول سيجارة أدخنها في حياتي وراء متجر "ديكي هامر".

لكن بين كل الذكريات تبقى ذكرى الرجل ذو السترة السوداء قوية، وتلمع بوهجها الخاص.

كان حقيقياً..

كان الشيطان، وذلك اليوم لم يكن يوم سعده.

يتنامى داخلي إحساس متزايد أن هربي منه كان حظاً..

مجرد حظ.

وها أنا ذا راقد في حجرتي ببيت المسنين، وقلعة الرمال محطمة ومعها جسدي..

أقول لنفسي إنني لا أحتاج للخوف من الشيطان، وإنني عشت حياة طيبة وخيرة ولا حاجة بي إلى الخوف من الشيطان.

أحياناً أتذكر كيف أنني من أقنع أمي بالعودة إلى الكنيسة ذلك الصيف.

لكن في الظلام لا تريحني ولا تخفف عني تلك الذكريات والأفعال الطيبة.

في الظلام تحضرني أصوات وهمسات ولد في التاسعة من عمره لم يفعل شيئًا شريرًا يستحق معه الخوف من الشيطان..

لكن الشيطان حضره.

وفي الظلام أسمع أحيانًا صوتًا أخفت..

صوت غير آدمي يقول *سمكة كبيرة!*

يهمس بنبرته الشرهة الجائعة.. فتزحف كل حقائق العالم الفاني وتتهدم أمام جوعه..

سسسسمكة كبييييرة!

حضرني الشيطان ذات مرة منذ زمن بعيد..

تراه يعود ثانية؟

أنا عجوز لا أقدر على الجري..

لا يمكنني الذهاب إلى دورة المياه والعودة دون عكازي.

ليست معي سمكة تروت كبيرة ألهيه بها عني..

حتى ولو للحظة أو اثنتين..

أنا عجوز وسلتي خاوية.

تراه يعود ساعيًا إليّ؟

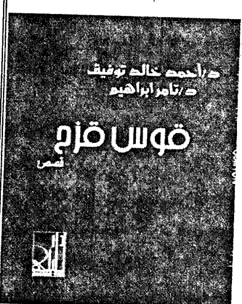
تراه ما زال جائعاً؟

* * *

قائمة إصدارات دار ليلى للنشر و الإعلان

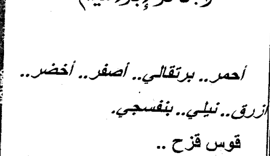
٢٠٠٤-٢٠٠٦

قوس قزح



د. أحمد خالد توفيق

د. تامر إبراهيم



أحمر.. برتقالي.. أصفر.. أخضر..

أزرق.. نيلي.. بنفسجي.

قوس قزح ..

وسبع قصص تحكي عن الألوان..

سبع حكايات عن قوس قزح .....

كانت الفكرة والمقدمة للدكتور (أحمد خالد توفيق).. وبعد هذا اختار أحد المؤلفين أن يكتب عن ثلاثة ألوان واختار الآخر أربعة.

فمن اختار ماذا ؟.. سنترك السؤال معلقاً.. فهل تجيب عنه أنت ؟..

* * * * * * * * * * * * * * * * * * *

قريباً بإذن الله الطبعة الثانية

مولوتوف

سلسلة نقدية ساخرة



نحن مختلون عقلياً.. نحذرك من البداية ، قبل أن تقرأ.. لا تُدخل نفسك وسطنا، ما لم تكن مسلحاً بـ "مولوتوفاية" أنت أيضاً..

و إذا كنت من هؤلاء الذين ينامون قريري العين مساء.. فاسمح لنا، مكانك ليس هنا ..

مولوتوف هي صندوق الزجاجات الوحيد غير القابل للإنفجار..

إلا ضحكاً ..

فهيا، اضحك معنا على همومنا ..

بس إوعى تنفجر فينا .

* * *

صدر منها:

١- عزيزي الوغد - (تقديم: د.نبيل فاروق)

٢- عش ولا تقل للموت (لا) مرتين غدًا- (إهداء: د.أحمد خالد توفيق)

٣- أسطورة المؤلف

"المتخصصون"



من بين كل رجال المخابرات المصرية، يحتل وحده مكانة خاصة..

مكانة صنعها أسلوبه الفريد ..

وكفاءته المتميّزة ..

وعقليته النادرة ...

النادرة جداً ..

ولأنه شخص فريد بين أقرانه ، أسندت إليه قيادة فريق جديد ...



فريق من شباب المخابرات ، الذين تلقوا تدريبات خاصة ، واكتسبوا خبرات نادرة ، جعلتهم يستحقون ، تحت قيادته ذلك الاسم ، الذى أطلقه عليهم الجميع ...

المتخصّصون .

د.نبيل فاروق

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٦/١١٢٧٧